رواية

عمرو يسري

رحلة الحسن

عصير الكتب
للنشر والتوزيع

رحلة الحسن

عصير الكتب للنشر و التوزيع

الكتـــــاب: رحلة الحسن
المـــؤلـــف: عمرو يسري
تنسيق داخلي: سندس فخري
الطبعة الأولى: يناير 2020
رقم الإيـــداع: 2019/26580
N . B . S . I: 978-977-992-071-9

المدير العام: محمد شوقي
مدير النشر: علي حمدي
مدير التوزيع: عمر عباس
00201150636428
لمراسلة الدار Email: P.bookjuice@yahoo.com
الآراء الواردة في هذا الكتاب تعبر عن وجهة نظر الكاتب
ولا تعبر بالضرورة عن وجهة نظر الدار

جميع الحقوق محفوظة ©

عصير الكتب للنشر والتوزيع

رواية

رحلة الحسن

عمرو يسري

عصير الكتب
للنشر والتوزيع

إهداء

إلى من تربَّى في كَنَف النبوة الطاهرة، فتشرَّب تعاليمها حتى فاضت بها أقواله وأعماله.

إلى من ترك الدنيا وزينتها، وسعى إلى الآخرة ونعيمها.

إلى من ظُلم حيًّا وميتًا.

إلى من ضحَّى بكل شيء في سبيل وحدة الأمة، وحفظ أراضيها، وصون دماء الناس وأعراضهم.

إلى من عاش في وجداني وقلبي ليالي وأيامًا وأعوامًا.

إلى من خفق قلبي وأنا أقرأ سيرته، وخفق مرةً أخرى وأنا أكتبها.

إلى الإمام الحَسَن بن علي بن أبي طالب.

عبد الله
(١)

عصير الكتب للنشر والتوزيع

اسمي عبد الله.

أبلغ من العمر خمسةً وثلاثين عامًا.

متزوج من امرأة أذكر أنني كنت أحبها يومًا ما، لكن لست أدري أين ذهب هذا الحب؟!

لدي منها طفل وحيد في العاشرة من عمره. ربما يكون هو السبب الوحيد لاستمرار هذه الزيجة حتى الآن.

كانت حياتي تسير بشكلٍ عادي، والعادي في حياتنا هو الروتين والرتابة. حياة ليستْ بالفاضلة ولا الفاسقة. لكنني لم أكن راضيًا عنها على أي حال. كانت تواجهني الكثير من المشكلات في البيت والعمل. لكن أشدها عليَّ كانت

المشكلات والصراعات التي تدور بداخلي. تساؤلات وأفكار وبقايا أحلام قديمة، شغلتني عنها الدنيا، لكنني لم أنسها، بل أبقيت عليها بداخلي.

إلى أن جاء هذا اليوم الذي كان بداية كل شيء. كانت صدفةً، وصدق من قال: «رُبَّ صدفة خير من ألف ميعاد». وإنني أشعر بالامتنان لهذه الصدفة التي وضَّحت لي الكثير من الأمور التي كانت غائبة عني، وأعادتني لعادة القراءة مرةً أخرى. والأهم أنها عرَّفتني على إنسان رائع قلما يجود الزمان بمثله.

عين الكتب للنشر والتوزيع

(٢)

- هيَّا استيقظ يا عبد الله؛ حتى لا تتأخر عن العمل كعادتك. تسهر كثيرًا بالليل ثم ها أنت ذا لا تستطيع...
- أعلم أعلم، لا أستطيع النهوض في الصباح، وأتأخر عن عملي. أسمع هذا الكلام كل يوم.
- تسمعه كل يوم، وتتأخر في الاستيقاظ رغم ذلك. لا فائدة منك.

قالتها فريدة ثم خرجت من الغرفة وهي تغمغم بكلام لم أسمعه، لكنها بالتأكيد تذمُّني. من الجيد أنني لم أسمعه.

نظرت إلى ساعة هاتفي فوجدتها قاربت السابعة صباحًا. حسنًا، يبدو أن فريدة محقة في غضبها. لقد تأخرت

عن عملي فعلًا. قفزت سريعًا من السرير، ونضحت الماء في وجهي؛ حتى أستفيق من غيبوبتي. ثم بدأت في تبديل ملابسي. نزلت من البيت مسرعًا نحو سيارتي.

كالعادة الشوارع مزدحمة، الهواء ملوث، اللعنات والسباب يملآن الجو. لا جديد تحت الشمس. لا أدري كيف سأكمل حياتي وسط هذه الفوضى، وبين هؤلاء الأشخاص المستهترين؟! والمشكلات ما زالت بانتظاري في العمل أيضًا. فالأمور تزداد سوءًا خاصةً مع إصرار سمير (باشا) - ابن عمي - على تصعيد الأمور ضدي، واستنفار مجلس إدارة الشركة في مواجهتي. حقًّا، لا أعلم ما الذي ...

فجأةً انطلق بوق السيارة التي تقف خلفي، وانطلق معه صوت قائدها: «لقد صارت الإشارة خضراء، هيَّا انطلق سريعًا قبل أن تُغلق علينا».

«حسنًا حسنًا يا صديقي. سأنطلق وأُفسح لك الطريق يا حضرة المهم؛ حتى لا تتأخر عن الوزارة». صرت ألعن سمير والذين يعرفون سمير، فبسبب الصراع المشتعل بيننا على أحقيَّة كل منَّا برئاسة مجلس الإدارة، فقد تم

الاتفاق على عدم استخدام سيارة رئيس مجلس الإدارة، وهو ما اضطرني لركوب سيارتي كل يوم، والقيادة وسط كل هذه الفوضى.

وأخيرًا وصلت إلى مقر الشركة، لقد كدت أيأس أن أصل اليوم. جاء إليَّ إبراهيم مسئول موقف سيارات الشركة مُسرعًا بمجرد رؤيته لي. فتركت له السيارة، حتى يقوم بركنها. وأسرعت إلى مدخل الشركة وأنا أدعو الله أن يمر هذا الاجتماع الطارئ دون قتلي من الطرفين.

«أهلًا عبد الله باشا، كيف أحوالك وأحوال ابنك الباشا الصغير؟ أنرت المكان» هكذا حيَّاني كل مَن قابلني منذ وقوفي أمام باب الشركة حتى وقوفي أمام المصعد. بالتأكيد يقولون نفس الكلام لسمير (باشا). هم يقفون على الحياد بيننا، منتظرين أي باشا منَّا ستكون له الغلبة؛ حتى يكون له ولاؤهم الكامل. هكذا تسير الأمور في بلادنا، بل في العالم أجمع. حسنًا، لا ألومهم. فلا أنتظر منهم الوقوف معي أو ضدي؛ فهم في النهاية لا ناقة لهم ولا جمل في هذا النزاع الماراثوني بيني وبين سمير. هم فقط يريدون أن يعيشوا، ولو على هامش الحياة.

خرجت من المصعد في الدور الثاني حيث غرفة اجتماعات مجلس الإدارة. وقفت أمام بابها. أخذت نفسًا عميقًا كأنما أستعد للقفز في حمام سباحة، ثم فتحت الباب.

طاولة طويلة، كراسي أنيقة متراصة عن اليمين واليسار، وعلى الطاولة في مقابلة كل كرسي وُضِع كوب من الشاي أو القهوة الساخنة، وبجانبه كوب من الماء. كرسي رئيس مجلس الإدارة الفارغ يقف شامخًا على رأس الطاولة. لوحات أنيقة تزين الحوائط. غرفة تليق حقًّا باجتماعات مجلس إدارة واحدة من أكبر شركات الاستشارات القانونية في البلد.

وجدت جميع الأعضاء حاضرين. متى أتوا؟! ولماذا لم يتأخروا مثلي في الطريق؟! أم أنهم يبيتون هنا منذ الأمس؟!

«هل ستقضي يومك كله تتأملنا يا عبد الله (باشا)؟!» قالها سمير بسماجة ثم ضحك ضحكة سمجة مثله ومثل مقولته. وبالطبع ضحك الأعضاء الموالون له. قابلت

سماجة الموقف بابتسامة سمجة؛ فلا يفل السمج إلا السمج. دخلت القاعة وجلست على الكرسي المقابل لسمير.

«بسم الله الرحمن الرحيم. نبدأ اجتماعنا السابع بتشكيل مجلس الإدارة الحالي. ونرجو من الله (تعالى) أن يُصلح الأحوال، ويجمع الآراء على ما فيه الخير لشركتنا الموقرة».

بهذه الكلمات بدأ الأستاذ عبد الحكيم - أو الحاج عبد الحكيم كما يناديه الجميع - الاجتماع. والحاج عبد الحكيم هو أكبر الأعضاء سنًا، وهو يُوجد بالشركة منذ عهد جدنا المؤسس؛ لذلك نترك له رئاسة اجتماعات مجلس الإدارة تقديرًا له من جهة، وكحلٍ وسط بيني وبين سمير من جهة أخرى.

أردف الحاج قائلًا: «ونظرًا للصراع القائم بين السيدين عبد الله وسمير بخصوص الأحقية في رئاسة مجلس الإدارة، فإن ...» قاطعه سمير قائلًا: «عذرًا يا حاج عبد الحكيم، لكن لا يوجد صراع على أحقية رئاسة مجلس

الإدارة؛ فالجميع يعلم أني رئيس مجلس الإدارة الشرعي، والأستاذ عبد الله هو من يحاول اغتصاب هذا الحق مني عَنوةً».

ارتفعت الأصوات بين مؤيد ومعارض، وقام بعض الأفراد من أماكنهم، وتراشق الجميع بالألفاظ والصيحات، وعمَّت الفوضى المكان.

«يا جماعة هذا لا يليق أبدًا. أنتم تهدرون كرامة الشركة بهذه التصرفات الصبيانية». عبثًا حاول الحاج عبد الحكيم تهدئة الأجواء، لكن ضاع صوته وسط الصيحات.

كان الغضب قد تملَّكني، فأمسكت كوب الماء المقابل لي وقذفته بكل قوتي باتجاه النافذة، فانفجرت مسببة جلبة عالية أسكتت الجميع. ثم هدرت بأعلى صوتي قائلًا: «أبي هو أكبر إخوته، وهو من حمل الشركة على كتفيه بعد وفاة جدنا المؤسس (رحمه الله). ولولا جهوده لانهارت الشركة، وأصبحنا جميعًا في الشارع». رد عليَّ سمير: «ولولا أموال أبي التي ضخها في هذه الشركة لانهارت أيضًا».

شعرت بارتفاع ضغط دمي، وكأن رأسي على وشك الانفجار، وعيناي على وشك الخروج من محجريهما. لا بدَّ أن أخرج سريعًا من هذا الجدال البيزنطي قبل أن ينفجر دماغي. هدرت قائلًا: «هذا حقي يا سمير، ولن أتنازل عنه أبدًا مهما كلفني الأمر. إما أن أدير الشركة، وإما أخربها على رؤوس الجميع». قلتها وخرجت مسرعًا من الغرفة وأنا أشعر باختناق، وألعن الجميع.

ركبت سيارتي، فككت رباطة عنقي والزر الأعلى من القميص. حاولت أن أتنفس بعمق؛ حتى أستعيد توازني. أخذت شربة ماء من زجاجتي، ثم قدت السيارة عائدًا للمنزل.

دخلت البيت فوجدت فريدة بالداخل، ما زالت بملابس العمل. يبدو أنها قد دخلت البيت قبلي بدقائق. نظرت لي باستغراب قائلةً: «غريبة! ليس من عادتك أن تعود إلى البيت مبكرًا هكذا». لم أرد عليها، فأنا لديَّ من الضغوط ما يكفيني ويفيض، ولست بحاجة إلى مزيد من الاستجوابات.

نظرت لي شذرًا ثم قالت: «حسنًا، لم أتوقع منك ردًّا كعادتك؛ فأنت ...». لما أعد أتحمَّل المزيد من الهراء. التفت إليها هادرًا: «لا أريد مزيدًا من الكلام الفارغ. يكفيني ما أنا فيه. لست متفرِّغًا لكلامك التافه هذا».

ردت عليَّ سريعًا قائلة: «حسنًا حسنًا. فقط أردت أن أخبرك أن مدرسة حسن قد أرسلت إليَّ نتيجته، وقد رسب».

لم أستوعب كلامها. حسن رسب! كيف؟! لقد كان الأول على فصله في العام الماضي!

- وأين هو الآن؟

- في غرفته. صامت منذ أن عاد للمنزل. أرجوك اتركه الآن، ولا داعي أن تفرغ غضبك فـ...

- «حسن، تعالَ الآن». صرخت بكل قوتي.

جاء حسن ووقف أمامي وهو صامت وينظر إليَّ بلا مبالاة غريبة لم أعتدها منه.

- حسن، ما الذي تقوله والدتك؟ هل حقًّا رسبت هذا العام؟!

لم يرد عليَّ، وظل على نظرته اللامبالية. غاظني سكوته، وغاظتني أكثر نظرته. فانفجرت فيه قائلًا: «أدخلتك أحسن وأغلى مدرسة، وجلبت لك أفضل المدرسين في المنزل، ووفَّرت لك كل ما يتمناه أي طفل في العالم ثم ترسب يا فاشل».

حاولت فريدة مقاطعتي قائلةً: «حرام عليك. ارحم الولد». فالتفتت إليها قائلًا: «وأنتِ يا هانم. مشغولة طوال الوقت بعملك، ومحادثة صديقاتك على الهاتف ونسيتِ ابنك. وهذه هي النتيجة. شيء مقرف».

نظرت إليها فوجدت الدموع محبوسة في عينيها، وجسدها يرتعش. جال بخاطري أن أحتضنها، لكن منعني كبريائي من هذا. هززت رأسي كأني أُبعد هذا الخاطر عن رأسي. وذهبت نحو الباب. خرجت من الشقة صافعًا الباب خلفي، وأنا أسمع بداية نحيب فريدة.

توجَّهت نحو سيارتي، ركبتها، وشربت المزيد من المياه من زجاجتي. ثم قررت التوجه نحو صالة الألعاب الرياضية. شعرت بغضبٍ شديدٍ من كل شيء، وأنني بحاجةٍ شديدةٍ إلى تفريغ هذا الغضب. قضيت في الصالة

ثلاث ساعات كاملة، مارست خلالها جميع الأنشطة المتاحة. فبعد أن فرَّغت غضبي في رفع الأثقال، قررت أن أذهب للساونا حتى تذوب همومي فيها مثلما تذوب دهوني. بعدها قررت أن أخوض جلسة تدليك. تمددت على بطني، وعلى مدى عشرين دقيقة استسلمت للمُدلك الذي كان يفرك جسدي بنعومة حتى يزيل عنه آثار التعب، ولم يكن يدري أنه يزيل التعب عن عقلي أيضًا.

بعد خروجي من صالة الألعاب الرياضية أحسست نفسي خفيفًا كالفراشة التي ترغب في الترحال قليلًا في كون الله الفسيح. فقررت أن أترك سيارتي في موقف السيارات، وأطلق العنان لقدماي تسيران بي كما تريدان. ظللت أتجول في الشوارع محاولًا نسيان مشكلاتي واستحضار بعض السلام الداخلي. لكن كلما بدأت أشعر بصفاء ذهني، وجدت وجه سمير يقفز إلى ذاكرتي مخرجًا لسانه لي. فأقوم بهز رأسي بقوة يمينًا ويسارًا كأني أحاول أن أطيح بوجهه خارج ذاكرتي، بل خارج حياتي كلها.

وبعد مدة لا أدري طالت أم قصرت من المشي وجدت نفسي أقف وجهًا لوجه أمام تمثال أسد كوبري قصر النيل

الشامخ، أو الذي كان شامخًا. فقد صار اليوم محاطًا بباعة حمص الشام والشاي والأعلام. وتفنن المراهقون في نقش أسمائهم مصحوبة بأرقام هواتفهم على قاعدته؛ عسى أن يحظوا بمكالمة من إحدى الفتيات الولهانات.

وقفت على الكوبري أتأمل صفحة النيل الصافية، فشعرت ببعض الراحة والسكينة. تذكَّرت أيام الجامعة حيث كنت آتي إلى هنا مع أصدقائي؛ لنتسامر ونلتقط بعض الصور التذكارية، ثم نذهب مشيًا على الأقدام إلى ساقية الصاوي لحضور إحدى الفاعليات الثقافية. كم كنت مولعًا بالثقافة والقراءة! لكن كل هذا تبخر بعد الزواج. يقولون في المثل «آخرة الحب الزواج»، يقصدون أن الحب يتكلل في النهاية بالزواج. لكن يبدو أن المثل في الحقيقة يعني أن الحب ينتهي بالزواج، كذلك الطموحات والأحلام. لا أعلم لماذا. ألم يكن أغلب المبدعين والمخترعين والأدباء متزوجين؟ لكنهم استطاعوا إكمال مسيرتهم العلمية والأدبية، فلماذا لا أستطيع فعل ذلك؟!

أيقظت هذه الخواطر أحلامي القديمة. فقررت السير إلى ساقية الصاوي؛ عسى أن أسترجع بعضًا من ذكريات

الماضي الجميل. وبعد أن مشيت طويلًا وأنهكني السير، وصلت أخيرًا إلى الساقية. قطعت تذكرة الدخول، وبمجرد أن دخلت ألقيت بنفسي على أقرب مقعد، حتى أريح قدميَّ. وبعد أن ارتحت قليلًا، وقفت على قدميَّ وتجوَّلت بين أروقة الساقية مبتسمًا؛ فقد كنت أفتقد هذه الأجواء الثقافية بشدة: مجالس القراءة، ورش الآليات الموسيقية مثل البيانو والجيتار، ورش التمثيل، وغيرها من الأنشطة الممتعة.

ثم لفت انتباهي لافتة معلقة على أحد الحوائط، ويجلس بجانبها شات بحوزته جهاز لاب توب.

(مسابقة العظماء: في حياة الأمم أشخاص عظماء يتجاوز تأثيرهم الزمان والمكان. نهتدي بسيرتهم، ونفتخر بأمجادهم. ولأن من ليس له ماضٍ فليس له حاضر وليس له مستقبل. فإننا نعلن عن انطلاق مسابقة لكتابة رواية أو كتاب عن شخصية تاريخية من اختيارك.

آخر موعد لإرسال الأعمال الفنية هو يوم ٣١ ديسمبر. علمًا بأنه يجب تسجيل بياناتك لدينا والشخصية التاريخية التي ستكتب عنها في موعد أقصاه يوم ٣٠ مايو).

شعرت أن هذه المسابقة فرصة لاستعادة أحلامي مرةً أخرى.

حسنًا، سأفكر في الأمر خلال الأيام المقبلة ثم أقرر ... فجأةً انتبهت لآخر موعد للتسجيل، ٣٠ مايو! إنه تاريخ اليوم! لا بدَّ أن أسجِّل بياناتي سريعًا وإلا ستضيع مني هذه الفرصة الذهبية. توجَّهت نحو الشاب صاحب اللاب توب، وأخبرته برغبتي في تسجيل بياناتي. قمت بإملائه جميع البيانات الشخصية المطلوبة. ثم سألني عن الشخصية التاريخية التي سأكتب عنها.

- للأسف لم أستقر على شخصية حتى الآن. هل بإمكاني تأجيل هذه الخطوة للغد فقط؟

- عفوًا سيدي، لكن سيتم إغلاق رابط التسجيل تلقائيًّا بحلول منتصف الليل. الساعة الآن الحادية عشرة والنصف مساءً. لديك نصف ساعة حتى تقرر، وإلا فلن يُعتد بتسجيلك.

جلست على أحد المقاعد القريبة، لأفكر في شخصيتي التاريخية التي سأعود من خلالها لعالمي الخاص ... عالم الثقافة. بدأت التفكير من عصر الفراعنة، لكنني

للأسف لم أتعمق في دراسته. فكرت أيضًا في العصور الرومانية والبطلمية والقبطية، لكنني أيضًا لا أعرف عنهم الكثير. يا لخيبتي! لا أعرف شيئًا عن تاريخي القديم. ثم انتقل تفكيري للعصر الإسلامي الذي أعرف الكثير عنه. هو إذًا عصري المثالي.

بالطبع أول مَن فكرت بالكتابة عنه هو الرسولﷺ. هممت أن أذهب لتسجيله، لكنني تراجعت فورًا. فمَن أنا حتى أكتب عن أعظم شخص في التاريخ؟! لكنني أحببت الكتابة عنه، فقررت أن أكتب عن أحد المقربين منه. وفي الوقت نفسه أردت أن أكتب عن شخصية عظيمة لم تأخذ حقها من التقدير، حتى يكون كتابي مميزًا. أخذت أقلب شخصيات عصر صدر الإسلام في رأسي بحثًا عن الشخصية المطلوبة. مرت برأسي عشرات الشخصيات العظيمة، لكنهم قد أُفرِدت لهم مئات الكتب على مر الزمان.

إلى أن لمع اسمه في ذهني، أحد أقرب الشخصيات للرسول ﷺ، وصاحب الدور المصيري في تاريخ الأمة. ورغم ذلك فإنه لم يأخذ حقه من الكتابة مثل الكثيرين.

أذكر حين قرأت عبقريات العقاد الإسلامية أنني استغربت عدم وجود اسمه بين من ترجم لهم. فقد ترجم للرسول (صلى الله عليه وسلم) وأبي بكر وعمر وعثمان وعلي وفاطمة الزهراء، ثم قفز فجأة لمعاوية بن أبي سفيان وعمرو بن العاص والحُسَين بن علي متجاهلًا أحد أهم شخصيات الإسلام، وصاحب الدور الرئيسي في القضاء على الفتنة الكبرى.

حسنًا، هذا هو الشخص المثالي، إن كان ظلمه التاريخ فإني سأنصفه، سأنشر سيرته بين الناس. وقفت على قدمي، وذهبت للشاب مرةً أخرى. وقفت أمامه مباشرةً. سألني:

- هل قررت عمَّن ستكتب كتابك أو روايتك؟

- نعم. سأكتب عن الحسن ... الحسن بن علي بن أبي طالب.

(٣)

وفي اليوم التالي ذهبت إلى ملجأ عاشقي الكتب في القاهرة، سور الأزبكية، كي أشتري مراجعَ تساعدني على إنجاز الكتاب. إلا أن الأمر لم يكن بالبساطة التي ظننتها. حيث قضيت ثلاث ساعات في البحث وسط أكوام الكتب عن مرجع يتحدث عن الحسن بن علي فلم أجد. هالني هذا الأمر. فكيف لشخص بهذه الأهمية ألا ينال حقه من الاهتمام والدراسة؟!

وبعد أن كاد اليأس يتمكن مني، وجدت أخيرًا كتابًا متخفيًا بين ثنايا الكتب، فاقتنصته وفرحت به مثل الطفل الصغير الذي وجد قطعة الحلوى التي كان يبحث عنها. عدت بعدها للمنزل وألقيت بنفسي على أريكة غرفة

الضيوف، حتى أحصل على غفوةٍ أصحو بعدها لأبدأ رحلتي مع الحسن بن علي. طبعًا بعد مشاجرتي الأخيرة مع فريدة بسبب رسوب حسن تركت لها غرفة النوم وصرت مقيمًا في غرفة الضيوف.

وعلى مدى أسبوعين كاملين انكببت على سيرة الحسن أقرأها، وأدوِّن التواريخ المهمة في حياته. أعجبتني كثيرًا سيرته، حتى إنني حاولت - مثل الأطفال - تحديد جوانب الشبه بيني وبينه، كأنني أحاول أن أوجد أي صلة تربطني به. تمنَّيت لو جاءتني الفرصة لمقابلته.

لكن يبدو أن هذه الاستفاقة الثقافية المفاجئة التي تعرضت لها لم تكن صادقةً، بل كانت مجرد نزوة؛ فبالتدريج بدأت أعود لروتين حياتي مرةً أخرى حيث صراعاتي مع سمير، وعنادي مع فريدة، ومقاطعتي لحسن عقابًا على رسوبه حتى أصبحت لا أراه إلا نادرًا. وهكذا اختفى حسن ابني عن دائرة اهتماماتي مثلما اختفى الحسن بن علي تدريجيًّا من حياتي.

إلى أن جاءت الليلة المشئومة التي استيقظت فيها على صياح فريدة.

- عبد الله، عبد الله. استيقظ. مصيبة مصيبة.

عصير الكتب للنشر والتوزيع

حسن
(١)

اسمي حسن عبد الله حسن.

في العاشرة من عمري.

طالب في الصف السادس بإحدى المدارس الدولية.

ليس لديَّ إخوة للأسف. كنت أتمنى أن يكون لديَّ أخ أو أخت، نلعب معًا، نذاكر معًا، نكبر معًا. لكنني نشأت وحيدًا. لست وحيدًا تمامًا؛ فقد وهبني الله أشخاصًا آنسوا وحشتي. كانت جدتي - والدة والدي - هي أول هؤلاء الأشخاص. كانت تأتي لمنزلنا في نهاية كل أسبوع، حتى تلعب معي، وتقرأ لي قصصًا قبل النوم. إلى أن جاء يوم كنت ألعب معها كالعادة، وفجأة استندت إلى الحائط، وأمسكت قلبها.

- أبي، أمي. تعالا سريعًا. جدتي مريضة جدًّا.

جاء أبي وأمي مُسرعين إلى جدتي. اتصل أبي بصديقه الطبيب وائل (أو العم وائل كما أناديه)، فيما أسندت أمي جدتي إلى كتفها وقادتها للسرير. جاء الطبيب وائل سريعًا بصحبة إحدى الممرضات. دخلوا جميعًا غرفة جدتي وتركوني وحيدًا بالخارج. بعد ساعة تقريبًا خرج الطبيب، سمعته يقول لأبي إن جدتي يجب أن تخضع لبعض الفحوصات.

بعد عدة أيام، جاء العم وائل إلى منزلنا ومعه نتيجة الفحوصات. قال أشياء كثيرة لم أفهمها. كان من ضمن ما سمعته أن قوة ضخ عضلة القلب صارت أقل من أربعين بالمائة. لم أفهم معنى هذا. وأين ذهبت الستون بالمائة الباقية؟! هل يتقلص قلب الإنسان كلما تقدم في العمر؟! لكن ما فهمته جيدًا وقتها أن جدتي لن تتمكن من اللعب معي ثانيةً. صارت تأتي إلينا بعد ذلك على فترات متباعدة، وتكتفي بقراءة القصص لي فقط قبل النوم.

أما الشخص الثاني الذي يؤنس وحشتي - أو كان يؤنس وحشتي - هو كريم ابن العم سمير. كان أصغر مني بعام،

وكان يأتي إلينا مع أبيه أو نذهب نحن إليهم. كنا نلعب معًا على جهاز الـ Play station، ونلعب كرة القدم في النادي، كما أنه كان معي في المدرسة نفسها. كان بمثابة أخي.

لكن فجأةً اضطرب كل شيء. لم يعد العم سمير يأتي إلينا. وعندما طلبت من أبي أن نذهب نحن إليه نهرني، ونبّه عليَّ ألا ألعب مع كريم في النادي أو المدرسة. وعندما قابلت كريم في المدرسة أخبرني أن أهله أيضًا منعوه من اللعب معي، وهددوه بالحرمان من الذهاب للنادي أو المصيف إذا خالف أمرهم.

كنت أسمع أبي وأمي يتحدثان عن خلافات مع العم سمير بخصوص إدارة الشركة، لكنني لم أفهم ما دخلي أنا وكريم بالأمر. لماذا يقحموننا في خلافاتهم؟! نحن أطفال، نريد أن نلعب فقط.

وهكذا فقدت الشخص الثاني الذي كان يؤنس وحشتي.

لم يبقَ لديَّ سوى أبي وأمي، وكلاهما مشغول عني. أمي مشغولة بعملها و(تحقيق ذاتها) كما تقول دائمًا في

شجاراتها مع أبي. وأبي مشغول بخلافاته مع العم سمير. فصار هاتفي المحمول هو صديقي الوحيد. لم يعد لدي رغبة لفعل أي شيء. وبالطبع أهملت دراستي، حتى إنني كنت أترك ورقة الإجابة في الامتحانات بيضاء. وبالطبع كانت النتيجة أن رسبت بعد أن كنت الأول على فصلي في العام الماضي. حينها سمعت من أبي أقسى كلمة جعلتني غير راغب في الحياة.

«يا فاشل»

عندما كان يناديني أبي فأقول له «إيه» يعاتبني ويقول لي: «عيب يا ولد! قل نعم. يجب أن تنتبه لألفاظك».

وأنت يا أبي، لماذا لم تنتبه لألفاظك حين نعتّني بالفاشل؟! هل كلمة «إيه» التي أقولها أحيانًا دون قصد أسوأ من كلمة «فاشل» التي قلتها لي! حتى إنك لم تكلف نفسك عناء الاعتذار لي. كنت أنتظرك أن تعتذر لي، أن تخبرني أن هذه الكلمة خرجت منك دون قصد، أنك لم تكن تقصدها. لكنك لم تفعل. فقد رأيتك ليلتها عدت للمنزل ونمت على أريكة غرفة الضيوف. ورأيتك في اليوم

التالي عدت للمنزل بصحبة أحد الكتب الذي انكببت عليه طوال الأسبوع. كل هذا دون أن تطمئن عليَّ.

صاروا يعاملونني مثل القط بعد ذلك. فقط يضعون لي الطعام والشراب حتى أظل على قيد الحياة. دون أن يسألني أحد عن أحوالي. فهل يسأل أحدٌ قطه عن أحواله؟! كأن قيمتي عندهم كانت فقط في الدرجات المرتفعة التي أحرزها، لكن بعد أن فقدت هذه الدرجات لم يعد لدي قيمة.

شعرت أنه لا أحد يحبني. فانهمكت في ألعاب الهاتف أفرغ فيها غضبي، وأملأ بها وقتي. كنت أدخل على متجر الألعاب، أختار لعبة من الأكثر انتشارًا، وأقوم بتحميلها على جهازي، وألعبها حتى أنهيها تمامًا. ثم أحذفها وأحمِّل غيرها، وهكذا. وظللت على هذا المنوال حتى جاء اليوم الذي تغيَّرت فيه حياتي تمامًا.

(٢)

بعد أن مللت من لعبة Subway Surfers قمت بحذفها من هاتفي، ثم دخلت على متجر الألعاب أبحث عن لعبة جديدة. فوجدت لعبة لها رمز حوت أزرق. خمَّنت أن اللعبة ستكون عبارة عن حوت يسبح في البحر ويقوم بجمع العملات المعدنية؛ فأغلب الألعاب صارت عبارة عن مخلوق ما يركض خلف العملات المعدنية. قمت بتحميلها وفتحها.

لكن الوضع كان مختلفًا، لم يكن هناك بحر أو عملات معدنية. بل كانت مجموعة من التحديات. طلبت مني اللعبة في أول يوم أن أنحت حوتًا على ذراعي باستخدام آلة حادة. شعرت بالاشمئزاز في البداية، لكن رنت في أذني

كلمة أبي «فاشل»، فأشعلت غضبي وحماسي. ذهبت للحمام وأخذت المقص، وعدت سريعًا لغرفتي.

«فاشل»

أمسكت المقص بارتجاف.

«فاشل»

أحكمت قبضتي عليه.

«فاشل»

وضعت شفرته على يدي وبدأت في النحت.

«فاشل»

أطبقت أسناني حتى أمنع الصراخ.

«فاشل»

أنهيت المهمة بنجاح، وأرسلت الصورة لمسئول اللعبة حتى يعلم جديتي ورغبتي في الاستمرار.

قمت بتغطية ذراعي بعد ذلك؛ حتى لا ينتبه أبي وأمي

عصير الكتب للنشر والتوزيع

له. وتعللت بشعوري بالبرد، ورغبتي في تدفئة نفسي، رغم أن الجو كان دافئًا بالفعل.

بعد ذلك توالت التحديات من نحت بعض الرسومات على ذراعي إلى الاستماع لأصوات مخيفة في منتصف الليل إلى مشاهدة فيديوهات مرعبة.

في اليوم السابع عشر وقفت على حافة سطح بنايتنا.

في اليوم التاسع عشر تسلقت رافعة أمام إحدى البنايات تحت الإنشاء القريبة من بيتنا.

كانت كلمة «فاشل» ترن في أذني كلما شعرت بأي تردد. كانت دافعًا لي للتغلب على جميع التحديات.

لو أن أبي استبدل هذه الكلمة اللعينة بكلمة تشجيع لتغيّرت حياتي، لكنت الآن أجتاز تحديات المسابقة الثقافية في المدرسة، والمسابقة الرياضية في النادي.

في اليوم الثامن والعشرين طلبت اللعبة مني ألا أكلم أحدًا لمدة يوم كامل. لم أفهم ما التحدي في هذا. فأنا عادةً لا أكلم أحدًا ولا يكلمني أحد طوال عدة أيام وليس يومًا واحدًا.

إلى أن جاء اليوم الثلاثون، حيث التحدي الأخير، المحطة الأخيرة في اللعبة، وربما في حياتي أيضًا. أخبرتني اللعبة أنه يتبقى لدي تحدٍ واحد يجب أن أقوم به حتى أصبح حوتًا كاملًا. أن أُنهي حياتي بنفسي.

لو أن أحدًا جاء لي منذ شهر وأخبرني أن أجرح يدي جرحًا صغيرًا لرفضت ذلك تمامًا. أما الآن وبعد ما تعرّضت له من إهمال والديّ، وعدم انتباههم لجسدي المليء بالجروح طوال هذا الشهر، فقد أصبحت مستعدًا لهذه الخطوة.

أحضرت حبلَ غسيل قديم وربطت طرفه في مروحة السقف، والطرف الآخرً حول رقبتي، ووضعت كرسيًّا تحتي. لكن قبل أن أتم التحدي، أحضرت ورقة صغيرة وكتبت فيها كلمة واحدة وتركتها بجانبي. ثم وقفت فوق الكرسي، أخذت نفسًا عميقًا، وأنهيت التحدي.

عبد الله
(١)

قفزت من فوق الأريكة مذعورًا، وانطلقت خلف فريدة نحو غرفة حسن. دخلت الغرفة فرأيت أسوأ منظر في حياتي. حسن - ابني وقرة عيني - ملقى على الأرض، وحبل الغسيل ملتف حول رقبته. ركعت فريدة فوقه تنتحب وتصرخ. ركعت فوقه وقمت بفك الحبل عن رقبته. كان يتنفس بصعوبة بالغة، وهناك حشرجة شديدة في حلقه.

التقطت هاتفي وكلمت وائل. جاء وائل فورًا مصطحبًا معه الممرضة التي جاءت عند تعب أمي. دخلا غرفة حسن، وطلبا مني ومن فريدة البقاء في الخارج. ظلت فريدة تصرخ فيَّ: «أنت السبب. أنت السبب. انظر لهذه

الورقة الصغيرة التي تركها حسن بجانبه ماذا كتب فيها؟!». ألقت الورقة في وجهي ثم ابتعدت عني منتحبةً.

أمسكت الورقة. لم يكن فيها سوى كلمة واحدة.

«فاشل»

أطبقت الورقة بقوة في يدي. أغلقت عينيَّ. وانهرت في بكاء شديد.

بعد ساعة خرج وائل من غرفة حسن. أسرعت إليه أنا وفريدة. فقال لنا:

- الحمد لله. الحالة صارت مستقرة الآن. من حسن الحظ أن حسن قد ربط حبل الغسيل بدون إحكام في المروحة، وأيضًا الحبل كان مهترئًا فانقطع، وسقط حسن على الأرض. وما تعرّض له من صعوبة في التنفس كان بسبب الصدمة النفسية التي تعرّض لها بسبب إقباله على هذه التجربة المروعة. وقد قمت بتطبيب الجروح التي تملأ ذراعيه.

- أي جروح يا وائل؟

عصير الكتب للنشر والتوزيع

- أي جروح؟! هل تمزحان؟! الجروح تملأ ذراعي حسن، كيف لم تريا؟! يبدو أنه كان يلعب تلك اللعبة اللعينة.

- أي لعبة وأي جروح! اشرح لي!

حدِّثنا وائل عن هذه اللعبة اللعينة، وتحدياتها، وأنه قد قابل ثلاث حالات على مدى الشهر الماضي لأطفال لديهم نفس الجروح التي وجدها على ذراع حسن.

فتّشنا هاتف حسن لنصعق بوجود هذه اللعبة على هاتفه، ووجود سجل المحادثات بينه وبين مسئول اللعبة، وصور لجميع التحديات التي قام بها حسن. بكيت وأنا أشاهد الجروح التي ملأت جسد فلذة كبدي. شعرت أن هذه الجروح قد نُحتت في قلبي.

وحتى تزداد جروح قلبي، أخبرني وائل أن حسن كان يردد كلمة «فاشل» طوال الوقت. واستفسر مني عن السبب. حاولت أن أتملص منه، لكن وائل - صديق طفولتي - كان يعرفني جيدًا حين أحاول التملص من شيء. نظر لي هذه النظرة التي أعرفها جيدًا، نظرة التشكك، فاضطررت أن أخبره بما حدث.

امتزجت علامات الأسف مع الغضب مع الصدمة على وجه وائل، ثم أخبرنا بضرورة وجود شخص قريب من حسن هذه الفترة معه. وضرورة الاستعانة بأحد الاختصاصيين النفسيين.

- من أكثر شخص يحبه حسن ويرتاح له؟

- أمي.

- حسنًا، من الأفضل أن تهاتفها الآن وتطلب منها المجيء لتبقى بجانب حسن. هو الآن يحتاج إلى كل دعم وحب.

هاتفت أمي وطلبت منه أن تأتي، بالطبع لم أخبرها بالتفاصيل، حتى لا تنهار. فقط أخبرتها أن حسن مريض بعض الشيء ويريدها بجانبه.

جاءت أمي على وجه السرعة بواسطة سيارة أجرة. عندما دخلت الشقة وجدتي أنا وفريدة نبكي، فبدأت في البكاء قبل أن تعرف ما حدث. سحبها وائل من ذراعها إلى غرفة حسن، وأحضر لها كوب ماء، وشرح لها كل شيء بالتفصيل. وعندما خرجت أمي من غرفة حسن،

وجدت الدموع قد أغرقت وجهها. جاءت وجلست على الأريكة بجانبي وطلبت من وائل وفريدة أن يتركاني معها وحدها.

بمجرد أن خرجا، هوت صفعة رهيبة على خدي الأيمن كأنها قذيفة هاون. فقدت السمع في أذني اليمنى لعدة ثوانٍ، ثم بالتدريج بدأ السمع يعود لها. ارتفعت يدي لخدي تلقائيًّا ونظرت لأمي وعلى وجهي كل علامات الدهشة والألم.

- أمي، لم تفعليها وأنا صغير، أتفعلينها الآن وقد صرت أبًا
- لا تقل أبًا. أنت لا تستحق شرف هذه الكلمة. كيف تفعل في ابنك هذا؟! كيف لا ترى أنت وزوجتك كل هذه الجروح على جسد ولدك؟! شهر كامل ولا تعرفان عنه شيئًا! كل هذا بسبب صراعك الغبي مع سمير على إدارة الشركة. نسيت بيتك وزوجتك وابنك.

فجأة سمعنا صوت صراخ حسن، فأسرعت نحو غرفته، وأمي خلفي. أوقفنا وائل عند باب الغرفة وطلب

منا عدم الدخول. وجدت فريدة تخرج من الغرفة باكية. أخبرني وائل أن حسن قد صرخ بمجرد مشاهدته لفريدة وانهار بشكل رهيب، وغالبًا سيفعل نفس الأمر معي. وأن الممرضة الآن تقوم بتهدئته.

- من الأفضل ألا يراكما هذه الفترة.

كم كانت كلمات وائل قاسية على قلبي! حسن ابني لا يريد رؤيتي.

قالت لي أمي: اخرج الآن واذهب إلى بيت أبيك. حسن لا يريد رؤيتك الآن، ولا أنا أيضًا. اخرج.

توجّهت نحو الأريكة، وأخذت مفاتيحي وهاتفي. رأيت كتاب الإمام الحسن بن علي بجانب الأريكة قد غطّاه التراب. لا أعلم ما الذي جعلني آخذه رغم أن حالتي لم تكن تشي بقدرتي على القراءة. ثم خرجت من البيت هائمًا على وجهي، لم أكن مصدقًا لكل ما يحدث. كيف ينهار كل شيء فجأة هكذا! لقد كانت أمي محقة عندما صفعتني. كأن هذه الصفعة أيقظتني من غفلتي. أهملت كل شيء في سبيل ذلك الصراع الغبي مع سمير. انهارت علاقتي بفريدة، ولم يعد ابني يريد رؤيتي، وكدت أفقد

مركزي بالشركة. فلا أنا رئيس مجلس الإدارة، ولا أنا مدير الشئون القانونية – كما كنت سابقًا –. صرت مثلما يقولون «مثل البيت الوقف». صرت عالقًا بين كل شيء.

مشيت كثيرًا في الشوارع كما هي عادتي عندما أشعر بالضيق والحزن. فكرت أن أذهب إلى صالة الألعاب الرياضية، حتى أفرغ شحنة الطاقة السلبية التي بداخلي. لكنني شعرت بالضعف الشديد. كنت ضعيفًا للغاية. لم أكن قادرًا على حمل نفسي، فما بالك بحمل الحديد؟! حسنًا، من الأفضل ألا أفرِّغ الطاقة التي بداخلي في الحديد، بل ينبغي أن أحتفظ بها بداخلي حتى أفرّغها في تصحيح شئون حياتي.

مشيت كثيرًا للغاية كأنني أعاقب نفسي على ما اقترفت من أخطاء في حق كل من حولي. وصلت إلى بيت أبي مشيًا. تركت المصعد، وصعدت الدَرَج على قدمي حتى الدور السادس كأنني أستمر في معاقبة نفسي.

بمجرد أن دخلت الشقة توجّهت إلى غرفتي القديمة، وألقيت بنفسي بكامل ملابسي وحذائي على السرير وأنا أردد:

كيف أهملت حسن بهذه الطريقة؟!

كيف أهملت فريدة بهذه الطريقة؟!

كيف سمحت لغروري أن يتحكّم فيَّ بهذا الشكل؟!

كيف فعلت ...

كيف ...

كـ...

ثم غبت عن الوعي.

عصير الكتب للنشر والتوزيع

(٢)

بدأت أستيقظ من النوم. شعرت أن إنهاك العالم كله قد انسكب فوق جسدي وعقلي. لم أكن قادرًا حتى على فتح عينيَّ. كنت أتنفس بصعوبة كأنني أركض في سباق أوليمبي. تحسست وجهي فوجدت عليه طبقة من تراب. هل تركت نافذة الغرفة مفتوحة؟! شعرت أن السرير تحتي صار صلبًا على غير العادة. مددت يدي على الطاولة بجانبي حتى ألتقط الهاتف، فلم أجد الهاتف. بل لم أجد الطاولة من الأساس. بدأت أشعر بالاضطراب، فاضطررت لفتح عيني حتى أفهم ما يحدث حولي. ويا ليتني لم أفتحهما!

وجدت نفسي مُلقى على الأرض وحيدًا في صحراء شاسعة، والشمس فوق رأسي تمامًا. ولا يوجد زرع أو

حجر أحتمي به من الشمس. لا يوجد سوى جبل بعيد لا تبدو عليه الحياة. وقفت على قدمي بصعوبة. شعرت بفزع شديد كأني طفل صغير تاه من والديه في شارعٍ خالٍ. كنت أشعر بظمأ شديد، شعرت أن حلقي قد تحجر، وتشققت شفتاي.

جريت في كل اتجاه دون هدف. تذكّرت السيدة هاجر وهي تسعى بين الصفا والمروة بحثًا عن الماء. فأنَّى لي ببئر زمزم! وبعد أن أنهكني التعب جلست مكاني منتظرًا الموت.

فجأة، رأيت شبحًا يتحرك من بعيد، ظهر من خلف الجبل. قلت لنفسي إن هذه بالتأكيد مجرد هلاوس بفعل العطش والإنهاك، أو ربما هي سكرات الموت. أغمضت عيني وفتحتها، لكنني رأيت الشبح كما هو. يبدو أنه حقيقة وليس مجرد هلاوس. ركضت نحوه صارخًا: «أرجوك. أنقذني. أعطني شربة ماء». كنت أسقط أكثر مما أركض.

– أرجوك انتظر يا أستاذ.

قلتها بأعلى صوتي. فجأة توقف الشبح مكانه واستدار ليواجهني. اقتربت منه أكثر فأكثر. مشى سريعًا باتجاهي وأسندني بيده القوية.

- ماء. أرجوك. شربة ماء.

أخرج من جيب ثوبه قِربة ماء وأعطاها لي. شربت بشراهة كأنني لم أشرب طوال عمري. أسقطت نصف القربة تقريبًا على الأرض وأنا أشرب. بعد أن ارتويت أعدتها له قائلًا بأنفاس متقطعة:

- شكرًا جزيلًا، لقد أنقذت حياتي.

- عفوًا يا بني. هل أنت بخير الآن؟

- نعم. الحمد لله. جزاك الله خيرًا.

بعد أن شعرت بالماء يسري في جسدي، بدأت أستعيد توازني. نظرت للرجل. كان طويلًا قويًّا، له ذقن طويل وشعر جميل. كان وسيمًا وقورًا. انتبهت لثيابه، كانت ثيابًا جميلة لكنها قديمة الطراز. حتى قربة الماء انتبهت أنها ليست بلاستيكية أو زجاجية كالمعتاد، بل كانت من الجلد. نظر إلي الرجل بدفء قائلًا:

- ألا تعرفني؟

- آسف يا أستاذ. لكن يبدو أن العطش والإنهاك أثّرا على ذاكرتي. هل أعرفك؟

- حسنًا، على أي حال لم أتوقع أن تعرفي من أول وهلة. أنا الحَسَن بن علي بن أبي طالب.

عصير الكتب للنشر والتوزيع

فريدة

- صباح الخير. كيف حالك؟

- بخير الحمد لله. شكرًا.

بمجرد أن أُنهي كلمة «شكرًا»، أسرع في صعودي على السلم، حتى لا يُلاحظ عبد الله احمرار وجنتي.

كنت أسكن مع والديَّ في بناية فاخرة في إحدى ضواحي القاهرة حديثة النشأة. كانت نصف شقق البناية تقريبًا لا تزال فارغة، ومن ضمنها الشقة التي تقع أسفل شقتنا. وفي أحد الأيام، سمعت جلبة في البناية، سألت والدي، فأخبرني أن هناك جيرانًا جدد قد اشتروا الشقة التي تقع تحتنا، ويقومون بنقل أثاثهم لها.

كان أبي هو رئيس اتحاد سكان العمارة، لذلك فقد قام بزيارتهم بعد مجيئهم بعدة أيام، حتى يتعرّف عليهم.

أخبرنا أنهم أسرة صغيرة العدد مثلنا. ثلاثة أفراد: الأب – حسن – نائب رئيس مجلس إدارة في إحدى شركات الاستشارات القانونية، والأم – فاطمة – ربة منزل، والابن – عبد الله – طالب بكلية الحقوق.

هكذا كانت بداية معرفتي بعبد الله. تبادل للسلامات والابتسامات على السلم في أثناء موعد رجوعي من المدرسة الثانوية الذي كان يصادف موعد رجوعه من الجامعة.

كنت دائمًا ما ألمح كتبًا في يده طوال فترة دراسته. كنت أنا أيضًا أشاركه حب القراءة. لكننا كنا نختلف في مجالات القراءة، فكنت أحب قراءة الروايات الرومانسية والاجتماعية. بينما كان هو يحب قراءة التاريخ. وهكذا فتحت الكتب بيننا بابًا جديدًا للحديث؛ فكنا نتناقش سريعًا عن آخر ما قرأنا. كنت ألمح في عيونه نظرات الإعجاب البريء. لكنه كان ملتزمًا، فلم يحاول أبدًا أن يقول شيئًا جارحًا، أو يرميني بنظرة خارجة. دائمًا ما كان عبد الله ملتزمًا.

كان الالتزام هو مفتاح شخصية عبد الله. لكن الالتزام الذي كان سببًا في إعجابي به في البداية، كان سبب كل مشكلاتنا فيما بعد؛ فعبد الله يقوم بكل أدواره بالتزام شديد، وينتظر في المقابل أن يقوم الشخص الآخر بدوره بنفس الالتزام. والأسوأ أنه ينتظر أن يقوم الشخص بدوره بنفس الكيفية التي يقوم هو بها.

والحقيقة؛ فإنني كنت أعاني قبل الزواج صرامةَ أبي، فقد كان رجلًا عسكريًّا يعشق النظام ويحب السيطرة، حتى إنه قد طلب أن يتولى رئاسة إدارة اتحاد ساكني العمارة بمجرد انتقالنا إليها. كان يعدُّ البيت ثكنة عسكرية لا مجال فيها لعصيان الأوامر. وقد استسلمت أمي لنظامه هذا منذ زمن طويل، فتركته يفعل ما يريد دون معارضة. تسبب هذا في نشأتي بشخصية ضعيفة، أو بالأحرى بلا شخصية. لذلك فقد كنت أتتوق للزواج، حتى أتخلص من هذه السيطرة، ويكون لي شخصيتي الخاصة.

وقد أعجبني في عبد الله ثقافته، فكل مثقف في نظري شخص رائع متفاهم. لكن الأيام أثبتت خطأ رأيي. فيبدو أن استغراق عبد الله في المجالات الدسمة من خلال دراسته للقانون، وقراءته للتاريخ أَثرت عقله، لكنها

أصابت مشاعره بالجمود. لكنني للأسف لم أكتشف هذا إلا بعد الزواج بفترةٍ، فكما نقول «مرآة الحب عمياء». فنحن لا نرى عيوب الطرف الآخر إلا بعد الزواج.

فاكتشفت بعد الزواج أنني تزوجت بنسخة معدلة من أبي، لكن الفارق أن أبي كان عسكريًّا، بينما عبد الله مدني. كان - مثل أبي - عاشقًا للالتزام. يريد مني أن أحبه بطريقته، وأقوم بدوري في المنزل وتربية حسن بطريقته أيضًا. وأي طريقة أخرى يعتبرها دليلًا على عدم التقدير.

كان هذا هو سبب خلافه الشديد مع سمير؛ فقد كان يرى أن التزامه في العمل بالشركة كمدير للشئون القانونية كفيل بجعله هو رئيس مجلس الإدارة بعد وفاة والده وعمه. وكان هو أيضًا سبب حنقه على حسن وتعنيفه إياه؛ فهو يرى أنه قد التزم بدوره ووفّر كل شيء لحسن؛ وبالتالي فإن الولد ملتزم هو الآخر بالنجاح وإحراز أعلى التقديرات.

كان عبد الله عقلانيًّا بشكل كبير، بشكل مبالغ فيه. لم يكن يعطي للمشاعر وزنًا. أذكر حين كنت حاملًا في حسن، أنه قد جهز لي مفاجأة، فرحت بها. لكن يبدو أنني

لم أفرح بالشكل الذي يريده، فاعتبر هذا دليلًا على عدم حبي وتقديري له ولهديته. حاولت أن أشرح له أن الهدية قد أعجبتني كثيرًا، لكن الحمل يرهقني جسديًّا وذهنيًّا إلا أنه لم يفهم ذلك.

شعرت أنني خرجت من سجن إلى سجن. لكنني قررت ألا أخضع له، حتى لا أتحوَّل إلى نسخة من أمي. قررت أن تكون لي شخصيتي الخاصة، وأقوم بتحقيق ذاتي. كنت موقنة أن هذا حقي. لكن يبدو أنني قد أصبت الهدف، وأخطأت الطريق؛ فبدلًا من أن أقوم بتحقيق ذاتي داخل المنزل، بحثت عنه في الخارج. طلبت من إحدى صديقاتي أن تبحث لي عن وظيفة في الشركة التي تعمل بها.

وهكذا انهمكت في العمل وتحقيق ذاتي. شعرت أنني بدأت أجد شخصيتي المفقودة، ولم أعلم أنني في الوقت نفسه كانت أفقد ابني وبيتي بالتدريج. انخفضت درجات حسن بشكل كبير، فبدأت بتعنيف الولد بشدة.

- كيف ترسب وأنا أذاكر معك دروسك دائمًا أولًا بأول؟!

هكذا عاتبته بعد أن ظهرت نتيجته. لم أنتبه أن كلماتي صارت تشبه كلمات عبد الله. يبدو أنني تطبعت بطبعه. العتاب والتعنيف ولوم الآخر صاروا غالبين على كلامي.

***

جلست أسترجع كل هذه الذكريات بعد أن رحل عبد الله ووائل، ودخلت حماتي - أو ماما فاطمة كما أناديها - والممرضة غرفة حسن. بكيت بحرقة في هذه الليلة كما بكيت ليلة رحيل أبي، وليلة رحيل أمي. شعرت أنني فقدت حسن كما فقدتهما. لكن - على الأقل - فإن أبي وأمي* رحلا دون اختيارهما، أما حسن فقد رحل بسبب جهلي وغبائي وأنانيتي. لم أكن أتخيل أن يأتي اليوم الذي يصرخ فيه ابني عندما يراني.

كنت أشعر بالإرهاق الذهني والبدني الشديدين. في هذه الأحوال يكون النوم هو أفضل علاج. وعلى أي حال، فإنني لا أملك شيئًا كي أفعله الآن. سأنام قليلًا أو كثيرًا. وسأترك التفكير في كل هذا للصبح. أليس الصبح بقريب؟!

عبد الله
(١)

- ماذا! مَنْ؟! الحسن بن علي! كيف وأين ومتى؟! هل مت وانتقلت إلى عالم البرزخ؟! أم ...

- هوِّن عليك يا بني. كنت تتمنى أن تأتي الفرصة لتقابلني. وها أنا ذا أمامك. فلا تضيِّع الفرصة في أسئلة لا طائل منها.

- عذرًا يا إمام. لكن الأمر أكبر من استيعابي. لكنني بالأمس نمت على سريري، وها أنا ذا أستيقظ لأجد نفسي في صحراء قاحلة. وبرفقة من! الإمام الحسن بن علي، حفيد رسول الله ﷺ

- عليه أفضل الصلاة وأتم التسليم. هل قرأت سيرتي؟

- «نعم، لقد بدأت فيها». قلتها بحماس ثم طأطأت رأسي، وقلت بصوت خفيض: «لكنني لم أكملها».

- لا عليك يا بني. لكن أخبرني بدايةً، كيف قرأتها؟

- كنت أدوِّن التواريخ المهمة، وأكتب أهم الأحداث بالتسلسل.

- فقط؟

- نعم فقط. هل هذا خطأ؟

- في أي عام كانت غزوة بدر؟

- في العام الثاني بعد الهجرة.

- وفي أي شهر؟

- في شهر رمضان المبارك.

- ماذا برأيك كان سيحدث لو انهزم المسلمون في بدر؟

- لم أفكر في هذا من قبل. ربما كان سيتم القضاء على الإسلام في مهده؟

- لو كان بيدك أن تختار مكانًا آخر لغزوة بدر، أين كنت ستختار؟

عصير الكتب للنشر والتوزيع

- لا أعلم. لا أعلم حتى أين يقع موقع غزوة بدر على الخريطة.

- فما فائدة أن تعلم الشهر والعام الذي وقعت فيه الغزوة دون أن تُعمل عقلك في كل جوانبها؟! إن كنت تريد حقًّا الاستفادة من التاريخ فعليك أن تدرس الشخصيات التي أثرت في الأحداث، والظروف المحيطة بها، والنتائج التي أدت إليها. وتسأل نفسك ماذا كان يمكن أن تفعل لو كنت مكانها. وتتخيّل حوارًا بينك وبين الشخصيات كهذا الحوار الذي يدور بيننا الآن. وتحاول الربط بين أحداث التاريخ وبين حياتك الشخصية، وتنظر إلى جوانب الشبه بينهما، وكيف يمكنك الاستفادة من التاريخ. التاريخ لا يُقرأ لكن يُعاش. لا تظن أني أعاتبك أو أعنفك، فالله يعلم كم أحبك وأحب جميع أفراد الأمة. لكنني أحبك، وأنصحك. ما رأيك أن تُعيد قراءة سيرتي مرةً أخرى بالطريقة التي قلت لك عليها، وربما يكون لنا حينها لقاء آخر؟

- حسنًا يا إمام. نِعم الرأي رأيك. لكن أخبرني أرجوك! هل كل هذا حقيقي أم أنه فقط في رأسي؟!

ضحك الإمام بوقار ثم قال:

- بل في رأسك يا بني.

عصير الكتب للنشر والتوزيع

(٢)

فتحت عينيَّ. تحسست وجهي فلم أجد عليه ترابًا. بدأت أتحسس سريري، هاتفي الموجود على الطاولة بجانبي. وجدت كل شيء كما تركته بالأمس. حسنًا، يبدو أنني قد استيقظت من النوم فعلًا هذه المرة، وليس حلمًا جديدًا. جلست في سريري أفكر فيما رأيت. لم أكن يومًا مؤمنًا بالصدفة. أؤمن أن كل شيء يحدث لهدف. وقد كنت مصرًا على أن أعرف الغاية وراء كل هذا.

خرجت من السرير، ووقفت في الشرفة. كانت السماء مظلمة، والهواء عليل. وقفت أتأمل كل ما حدث لي. المشكلات التي تراكمت عليَّ فجأة في البيت والعمل، ذهابي إلى ساقية الصاوي، المسابقة الثقافية التي صادفت أن آخر موعد للتقديم فيها هو نفس الموعد الذي علمت

بها فيه، اختياري لشخصية الحسن بن علي لأكتب عنها، ما حدث لابني حسن، الحلم. انتبهت أن ابني يحمل نفس اسم الحسن بن علي. بالتأكيد هناك هدف من وراء كل هذا.

فجأة انطلق صوت المؤذن مُعلنًا دخول وقت الفجر. لأول مرة منذ فترة طويلة أسمع أذان الفجر؛ ففي هذا الوقت أكون نائمًا.

(الصلاة خير من النوم ... الصلاة خير من النوم)

كأنني لأول مرة أعرف بوجود هذا المقطع في أذان الفجر.

لأول مرة أشعر بكلمات الأذان. شعرت بها تتغلغل في عقلي وقلبي.

قلبي!

لطالما أهملت تلك المضغة في جسدي. تلك المضغة التي سمعت خطيب الجمعة يومًا يقول إنها إن صلحت صلح الجسد كله، وإن فسدت فسد الجسد كله. كنت أعطي عقلي دائمًا الجانب الأعظم في حياتي. فالعقل

هو الملك المتوج على عرش جميع أعضاء جسدي. لم أكن أسمح لعاطفة عابرة أو خلجة نفس أن تأخذ مكانها بداخلي. وها أنا ذا قد وقفت على حافة حياتي، كل شيء منهار. هل أخطأت حين اعتمدت على عقلي فقط؟!

لذلك فقد غضبت عندما رسب حسن، فالأمر عندي عقلاني بحت. ١+١=٢. لقد وفَّرت لك كل ما تحتاجه للمذاكرة، فأنت يجب أن تنجح. قضي الأمر. لكن يبدو أن للأمر بُعدًا آخر لم أنتبه له. لقد كان حسن يحتاج لما هو أكبر من مجرد مدرسة مرموقة، ومدرسين مخضرمين. كان يحتاج إلى أمور لم أعطِها قيمة في حياتي. كان يحتاج إلى أبٍ وليس مديرًا.

تنفست بعمق وتلألأت بعض الدموع في عيني عندما تذكرت ما حدث لحسن. ثم قررت أن أذهب لأتوضأ وأصلي الفجر في الجامع لأول مرة منذ سنوات تقريبًا. شعرت كأنه الوضوء الأول في حياتي. شعرت كأنني أعتنق الإسلام من جديد. نزلت على السلالم أيضًا، ولم أركب المصعد. هل ما زلت أرغب في معاقبة نفسي؟! لا أعلم. أم أنني أريد أن أطيل عمر هذه التجربة الروحية التي أمر بها؟!

التجربة الروحية! هل حقًّا استخدمت هذا المصطلح؟!

كأنني أكتشف لأول مرة أن لدي روحًا. يبدو فعلًا أن هناك تغييرًا كبيرًا يحدث في حياتي. منذ لحظات ذكرت قلبي، وها أنا الآن أذكر روحي. كأنني أعيد اكتشاف حياتي من جديد.

وقفت على باب الجامع. أخذت نفسًا عميقًا ثم خلعت حذائي ودخلت. جاء صوت المؤذن معلنًا وقت إقامة الصلاة.

اصطففت في الصف الثاني مع المصلين.

(حاذوا المناكب وسدوا الفُرَج. أقبلوا على الله بقلوبكم، يقبل عليكم برحمته).

للمرة الثانية في غضون نصف ساعة يأخذ القلب موقعه في حياتي.

(الله أكبر)

ربما هي المرة الأولى التي أشعر فيها بمعنى هذه الكلمة. الله أكبر ... أكبر من العمل والبيت. أكبر من

الخلافات. أكبر من عقلي الذي طالما أجلسته على عرش حياتي. لكن يبدو أنه بدأ يتزحزح عن عرشه، وسيجد لك شركاء في الفترة المقبلة. سيجد نفسه لأول مرة مضطرًا لاقتسام السلطة مع آخرين. يبدو أن الثورة قد اشتعلت بداخلي.

لن أبالغ إذا قلت إنني كنت أصلي بعقلي فقط قبل ذلك. كنت أصلي كنوع من الالتزام نحو خالقي، حتى أكون بذلك قد أديت واجبي نحوه، ووفيت بحقه، وبالتالي أكون مستحقًا لنعمه في المقابل. كم كنت غبيًّا! وهل يوفِّي الإنسان بحق خالقه؟! هل لو صمت كل نهاري، وأقمت كل ليلي أكون بذلك قد وفيت بحقه؟!

كانت هذه هي أول مرة أصلي حقًّا في حياتي. أعني أول مرة أشعر بالصلاة وبآيات القرآن التي يتلوها الإمام. ربما لأنني قد سمعت نصيحة الإمام وأقبلت على الله بقلبي. ولأول مرة تذرف عيني الدموع في أثناء الصلاة. شعرت كأن الدموع تغسلني من الداخل. كأني أولد من جديد.

بعد أن أنهيت الصلاة، قررت أن أتجول قليلًا في الشوارع، حتى أَنعم ببعض الهواء النقي. كنت أسمع دائمًا

عن فوائد الاستيقاظ مبكرًا، لكن لأول مرة أشعر بهذه الفوائد. أول مرة أستنشق هذا الهواء النقي الذي سيتلوث بعد قليل بعوادم السيارات عندما يستيقظ الناس، ليذهبوا لأعمالهم.

عندما بدأت الحركة تدب في الشوارع، قررت أن أشتري فطورًا مصريًّا أصيلًا. فول وطعمية وبطاطس وباذنجان مخلل. حسنًا، أعلم أن هذا النوع من الطعام المشبَّع بالزيوت يتنافى مع قواعد الصحة واللياقة الجسدية، لكنني فعلًا كنت أشتاق لهذا الفطور. فقد كنت أذهب يوميًّا إلى عملي دون فطور، وأكتفي فقط بفنجان من القهوة في التاسعة صباحًا.

أحضرت الفطور وصعدت إلى شقتي. هاتفت مازن مساعدي في العمل، لأخبره أني سأحصل على إجازة لعدة أيام بسبب ظروف خاصة.

إجازة يا أستاذ عبد الله في هذه الظروف! أنت تعلم أن الشركة مقلوبة رأسًا على عقب بعد الاجتماع الأخير. هذه الإجازة ستعطي الفرصة لأستاذ سمير وفريقه أن يسيطروا على زمام الأمور.

صدقني يا مازن. لو جئت للشركة بوضعي الحالي سأتسبب في مزيد من المشكلات. أحتاج أن أكون وحدي قليلًا، حتى أعيد ترتيب شئوني، وبالتالي شئون العمل. وأنا أثق بقدرتك على إدارة دفة الأمور في غيابي.

أنهيت المكالمة. فكرت أن أكلم أمي حتى أطمئن على حسن، لكني تراجعت في النهاية. لم أقوَ حاليًّا على مواجهة أمي أو حسن أو فريدة. فريدة، ترى كيف حالها الآن؟!

أغلقت الهاتف. أمسكت بكتاب الحسن بن علي. مسحت التراب بيدي عن غلافه. ثم قررت أن أبدأ قراءته من البداية بالكيفية التي نصحني بها الإمام.

فريدة

بعد ليلة مليئة بالكوابيس استيقظت أخيرًا. أخذت نفسًا عميقًا ورفعت رأسي لأعلى كأنني كنت أغرق في البحر، وجاء مَن سحب رأسي للأعلى، حتى أحصل على بعض الهواء يبقيني على قيد الحياة. كانت أضواء الشمس الساطعة تخترق زجاج النافذة لتسقط على سريري تمنحني بعض الدفء.

خرجت من غرفتي فوجدت ماما فاطمة متوجهة نحو غرفة حسن. أسرعت إليها سائلة عن أحواله. فأجابتني باقتضاب أنه ما زال نائمًا، ثم تركتني ودخلت غرفته. عذرت معاملتها الجافة معي؛ فما حدث لم يكن سهلًا على أي منَّا.

أمسكت هاتفي، وكلمت زميلتي رانيا. طلبت منها أن تقدِّم لي في العمل على إجازة طويلة الأمد.

- لكنك يا فريدة تعلمين مديرنا، سيرفض الإجازة بالطبع.

- حتى لو قام بطردي من العمل، لا أهتم. لدي من المشاغل ما هو أكبر من سخافات مديرنا الهمام.

- حسنًا حسنًا، سأفعل ما بوسعي.

أنهيت المكالمة. وأغلقت الهاتف تمامًا. لم أكن قادرة على التعامل مع أي شخص الآن. ولم أكن قادرة على التفكير في أي شيء سوى حسن. لم أكن مصدقة لما حدث حتى الآن. حسن الفتى الحساس الرقيق يجرح ذراعيه بهذا الشكل البشع! حسن الذي كان يلومني عندما أقتل نملة في المطبخ، يحاول أن يقتل نفسه!

«حسنًا حسنًا يا فريدة كفاكِ لومًا لنفسك».

قلتها لنفسي بحزم، وأنا أهز رأسي بقوة يمينًا ويسارًا كأني أزيح هذه الأفكار السلبية عن رأسي. لم يعد أمامي متسع من الوقت للعب دور الشخصية الضعيفة أو

المغلوبة على أمرها. كنت دائمًا ما أرجو أن تأتي اللحظة التي أثبت فيها نفسي، وأحقق ذاتي. وها هي الفرصة قد جاءت. نعم جاءت بشكلٍ قاسٍ جدًّا وغير متوقع، لكنها جاءت على أي حال، ولنْ أسمح لها أن تفلت من يدي. سيكون حسن هو هدفي ومستقبلي وذاتي.

أحضرت جهاز اللابتوب الخاص بي. وفتحت متصفح الإنترنت بحثًا عن بعض المواقع المتخصصة في تقديم الدعم النفسي.

«حسن سيعود أفضل مما كان».

قلتها بصوتٍ عالٍ، وبدأت رحلتي عبر فضاء الإنترنت.

عصير الكتب للنشر والتوزيع

الحسن بن علي
(١)

في السنة الثالثة من هجرة جدي المصطفى ﷺ كان ميلادي. حيث اجتمعت النسوة في بيت أمي فاطمة الزهراء ليكنَّ بجانبها في هذا الخطب الجلل الذي تقر به عين كل أم، ألا وهو ولادة أول مولود لها. وعندما وصلت البشارة إلى جدي ﷺ قام ليطمئن على أمي وعليَّ. كان وجهه كالبدر ليلة التمام، مهيبًا، وقورًا، متواضعًا. كانت سعادته بولادتي كبيرة.

وعندما رآني قال: «أروني ابني. ما سميتموه؟». يا لسعادتي، أن يصفني رسول الله ﷺ بـ«ابني».

فرد عليه أبي – علي بن أبي طالب –: سميناه حربًا.

فقال جدي: «بل هو حَسَن». وهكذا كنت أول من سُمّي بـ «حَسَن» في العرب.

وأقبل الصحابة الكرام يقدّمون التهاني لجدي وأبي.

هكذا كانت بدايتي، تحت رعاية جدي رسول الله ﷺ، وفي كنف فتى قريش علي بن أبي طالب، وأقرب بنات الرسول لقلبه فاطمة الزهراء، وفي مجتمع من الصحابة الكرام المؤمنين الشجعان وُلدت ونشأت.

لكن رغم كل هذه المكانة التي تمتع بها أبواي في مجتمعهما فإنهما كانا يعيشان حياة بسيطة زاهدة. فكانت أمي تقوم بكل الأعمال المنزلية بنفسها، تغسل الثياب، وتنظف البيت، وتعجن وتخبز، وتقوم على رعايتنا. لم يكن لها خادم. فتعلمت من أمي الصبر والزهد والاعتماد على النفس.

أما أبي فكان يمتاز بالقوة البدنية والشجاعة وسرعة البديهة، وهو ما أهّله ليكون أحد قادة الجيش الإسلامي في عهد جدي. لكن قوة أبي لم تتوقف فقط عند القوة البدنية، بل كان يمتاز أيضًا بالفصاحة، لذلك فكثيرًا ما بعثه جدي سفيرًا إلى القبائل ليدعوها للإسلام. وكان أيضًا ممن

يجيدون القراءة والكتابة، فكان من كتبة الوحي. وهم الصحابة الذين وكلهم جدي ﷺ بكتابة القرآن فور نزوله عليه، حتى لا يضيع. وهكذا تعلمت من أبي الشجاعة وحمل السلاح والفصاحة والقراءة والكتابة.

أما جدي ﷺ، فرغم أني لم أعش معه طويلًا؛ فإنني تعلمت منه الكثير مما لا يتسع الزمن لسرده أو تكفي الأوراق لحصره. فقد كان قرآنًا يمشي على الأرض. كان رفيقًا لينًا يلعب معنا - نحن الأطفال - وينصحنا. فتراه تارةً يداعبني، وتارةً يقبّل أخي الحُسَين، وتارة يُرسل بهدية لأمامة ابنة خالتي زينب، وتارة يحمل عبد الله ابن عمي جعفر. بل كان حنانه يتجاوز أطفال أهل بيته إلى جميع الأطفال. ولا يرى عيبًا في هذا. بل إنني وأخي الحسين كنا نثب على ظهره وهو يصلي فلا ينهانا عن ذلك.

كان حبه ورفقه بالأطفال مثارَ إعجاب الناس. أذكر أنه يومًا كان يلاعبني ويقبلني كعادته، فرآه أحد الرجال، وقاله له متعجبًا: «إن لي عشرة من الولد ما قبلت واحدًا منهم»، فقال له جدي ﷺ: «من لا يَرحم لا يُرحَم». وهكذا تعلمت من جدي الرحمة والرفق واللين.

ويا لشدة سعادتي حين يمدحني أحد الناس قائلًا: «أنت أشبه الناس بجدك».

أذكر أنني كنت ألعب مع الصبيان يومًا، فخرج أبي بصحبة أبي بكر الصديق من المسجد، فحملني الصديق على عاتقه وقال: «بربي شبيه النبي. لا شبيه علي». وأبي يضحك من كلامه.

كان حب جدي لي دائمًا هو الأمل الذي ينير لي الطرقات المظلمة. فهو لم يكن يترك مناسبة إلا ويعبر فيها عن حبه لي ولأخي الحُسَين. فكان يقول عنَّا: «هما ريحانتاي من الدنيا». وكان يحملني على عاتقه، ويقول: «اللهم إني أُحبه فأحبه». ما زال صدى كلماته يتردد في أذني وعقلي وقلبي وكل كياني. لكن بين كل هذه الكلمات، كانت هناك كلمة هي الأقرب لقلبي، والأكثر تأثيرًا في نفسي. كانت هي المحرك الأساسي لي بعد ذلك في كل أمور حياتي.

(٢)

كان جدي واقفًا على المنبر خطيبًا في الناس. والناس أمامه جالسون كأن على رؤوسهم الطير من شدة الانتباه لما يقول. فدخلت المسجد أركض بين الصفوف. ولم يكن جدي يمنع الأطفال من المسجد، بل كان يهذبنا ويعلمنا آدابه، حتى نحبه ونعتاد على المجيء له. أقبلت على جدي راكضًا، فأقبل عليَّ كعادته مبتسمًا، وحملني على عاتقه. وكان يلتفت للناس مرةً ويلتفت لي مرةً.

لا أذكر ما كان يقوله حينها؛ فقد كنت مشغولًا باللعب فوق عاتقه. لكني فجأة انتبهت له وهو يقول:

«إن ابني هذا سيد، ولعل الله أن يُصلح به بين فئتين عظيمتين من المسلمين».

لا أذكر ما قاله قبلها أو بعدها. بل لا أذكر ما حدث باقي اليوم. كأن كل انتباهي وتركيزي يومها اجتمع فقط في هذه اللحظة. هذه اللحظة التي شكّلت مسار حياتي فيما بعد. فقد كانت سببًا في سعيي دائمًا للإصلاح بين الناس. كانت كلمته هذه كالوصية بالنسبة لي. كنت أخشى إن تركت الإصلاح أن أكون بذلك قد خالفت وصيته.

والحقيقة فإن هذه الكلمة أيضًا جعلتني بعد ذلك أنتبه للشبه الكبير بيني وبين جدي، فالشبه بيننا لم يكن في الشكل فقط، بل كان أعمق من هذا.

قام جده بتسميته حين مولده، وقام هو – جدي – بتسميتي حين مولدي.

كان أول من سُمّي محمدًا من العرب، وكنت أول من سُمّي حسنًا من العرب.

فقد أمه في السادسة من عمره، وفقدت أمي في الثامنة من عمري.

كان هو دعوة جده إبراهيم:

﴿رَبَّنَا وَابْعَثْ فِيهِمْ رَسُولًا مِّنْهُمْ يَتْلُو عَلَيْهِمْ آيَاتِكَ وَيُعَلِّمُهُمُ الْكِتَابَ وَالْحِكْمَةَ وَيُزَكِّيهِمْ﴾

وكنت دعوة جدي: «لعل الله أن يُصلح به بين فئتين عظيمتين من المسلمين».

فقد كان هذا الشبه أيضًا في الظروف المحيطة. وقد عزمت منذ صغري ألا يتوقّف الشبه عند الشكل والظروف فقط، بل في الصفات والأخلاق والسيرة أيضًا. فعزمت أن أسير بسيرته طوال حياتي حتى ألقاه على الحوض يوم القيامة.

ولشدة حبي له فقد سمّيت اثنين من أبنائي باسم محمد، وكُنّيت باسمه. فصار اسمه ملازمًا لاسمي دائمًا. صرت أبا محمد الحسن بن علي بن أبي طالب.

عبد الله

رفعت وجهي عن الكتاب وأنا آخذ نفسًا عميقًا. كأني بهذا أعود لعالمي مرةً أخرى. شعرت كأني غبت لشهور وسنين داخل هذه السيرة الطيبة. فلا أعلم كم من الوقت مرَّ عليَّ، هل هي ساعات أم أيام؟!

ذهلت لما قرأت من طفولة الحسن. ما هذا المجتمع الفاضل؟! ما هذا الرسول الجد العظيم؟! عندما قرأت التاريخ الإسلامي في المرحلة الثانوية والجامعية، مررت حينها سريعًا على سيرة الإمام الحسن، لكنني لم أتوقّف كثيرًا عندها. ربما لأنها لم تحظَ بالاهتمام الكافي من قبل الكُتّاب والمؤرخين مقارنة بسير باقي الصحابة، بل حتى مقارنة بسيرة أخيه الحُسَين. فقد كانت المجزرة الرهيبة التي تعرَّض لها الحُسَين وآل البيت النبوي في كربلاء

سببًا رئيسيًّا في انهماك الأقلام في الكتابة عن الحُسَين. أما الحَسَن فلأنه كان شخصًا مسالمًا فلم يحظَ بمثل الاهتمام رغم أهمية دوره في تاريخ الأمة.

شعرت بدموع ساخنة تسيل على خدي. لا أعلم هل كانت تسيل من عبق هذه السيرة الطاهرة؟! أم تسيل حزنًا وندمًا على عدم عنايتي بابني كما ينبغي؟! فارق شاسع بين ما وجده الحسن بن علي من عناية وتربية في صغره، وبين ما وجده حسن بن عبد الله من إهمال وصرامة. أذكر أني يومًا أخذت حسن معي صلاة الجمعة فأحدث جلبةً، كباقي الأطفال في عمره. إلا أني تعاملت مع الأمر بصرامتي المعتادة. فأمسكت يده الصغيرة، وعصرتها في يدي بقوة حتى آلمته، وبعد أن رجعنا إلى البيت وبخته بقوة ومنعته من المجيء معي للصلاة ثانيةً. لا عَجَب أنني لم أره يصلي بعد ذلك. يبدو أنني قد كرَّهته في الصلاة دون قصد.

وأذكر يومًا آخر أن أغضبني حسن، فقمت بمنعه من ورشة الرسم التي كان يحضرها في النادي كنوعٍ من العقاب. يا لغبائي منعته من أكثر شيء يحبه ويفرغ فيه طاقته!

وأذكر ... وأذكر ... وأذكر ...

لست أبًا شريرًا. وليست عندي مشكلات نفسية. لكنه الفهم الخاطئ للتربية. أو بالأصح الجهل بها. لم أقرأ يومًا في مجال تربية وتعليم الأطفال، بل كنت أعتمد على الارتجال والموروثات. كنت أظن أن الصرامة هي الحل الوحيد لإنشاء طفل قوي صالح. لكن ها أنا ذا أقرأ سيرة الحسن بن علي، لأجده قد تمتع بحنان وعطف أبويه وجده على عكس ما كنت أظن.

إلى أين تسير بي يا إمام؟! كنت قد بدأت قراءة سيرتك في الأساس؛ كي أشارك بها في مسابقة. وها هي الآن تكشف لي خطأ تربيتي لابني.

هكذا إذًا تُقرأ سير العظماء. ليس بتدوين التواريخ المهمة وحفظ الأحداث الكبيرة فحسب. بل بالعلم والفهم ومشابهة الأحداث بالواقع.

لا وقت للندم على ما فات الآن. سأصحح مسار كل شيء. وإن كنت قد أخفقت في تربية ابني قبل ذلك، فلن أخفق الآن. ما زال حسن صغيرًا في العاشرة من عمره.

سأعيد اكتشاف علاقتي به مرةً أخرى. وسأعيد اكتشاف نفسي معه أيضًا. لكن قبل كل هذا عليَّ أن أُصلح علاقتي بفريدة وأمي. حتى نكون جميعًا يدًا واحدة في إصلاح ما أفسدته.

أمسكت هاتفي، فتحته، اتصلت بفريدة. لكن هاتفها كان خارج الخدمة. يبدو أنها أيضًا قد أغلقت هاتفها مثلي منذ الحادثة. حسنًا، سأذهب إلى البيت. ترددت كثيرًا في الذهاب إليه طوال اليومين الماضيين خشيةً أن يؤثر هذا سلبًا فيهم. لا أعلم إن كان هذا سيسرهم أو يسوؤهم. لا أعلم إلا أنني أريد إصلاح كل شيء الآن.

فريدة

خرجت من غرفة حسن وأنا أحمل طبق الطعام بين يدي. أحمد الله أنه بدأ يأكل بعد أن كان قد امتنع عن الطعام طوال اليومين الماضيين حتى شحب لونه. كان يتغذى على السوائل وقطع الفاكهة الصغيرة فقط. أخبرني الاختصاصي النفسي الذين عرّفنا عليه وائل أن الامتناع عن الطعام أمر طبيعي في حالات الصدمة النفسية سواء للكبار أو الصغار.

كانت هذه هي المرة الثانية التي أدخل فيها غرفة حسن بعد المرة الأولى المشئومة التي صرخ فيها عندما رآني. دخلت وأنا أقدم قدمًا وأؤخر الأخرى؛ خوفًا أن يفعل مثلما فعل أول مرة. لكنه الحمد لله كان هادئًا. صحيح أنه لم يتكلم معي، لكن على الأقل لم يصرخ. اعتبرت هذا تقدّمًا في حالته.

كانت ماما فاطمة والممرضة تقومان بدور رائع في التخفيف عنه ومؤانسته. كانت ماما فاطمة تحكي له قصصًا قبل النوم التي يحبها. صحيح أنه لم يكن يتجاوب معها كالسابق، لكن على الأقل لم يكن يمتعض. في مثل هذه الحالات الصعبة يعدُّ عدم الامتعاض تقدمًا في حد ذاته.

بعد أن وضعت طبق الطعام في المطبخ ونظفته، ذهبت لأجلس على الأريكة. فتحت جهاز اللاب توب الذي صرت أقضي عليه الكثير من الوقت. كنت أتصفح المجموعة التي تقدم النصائح المناسبة للتعامل مع حالات الصدمة النفسية. هذه المجموعة التي يديرها الاختصاصي النفسي على موقع الفيسبوك، ونصحني بالانضمام إليها.

هالتني أعداد الآباء والأمهات الموجودة على المجموعة. وهالتني أكثر أنواع الصدمات النفسية التي يتعرض لها الأطفال وأسبابها التي تتنوع بين إهمال الأهل والتنمّر من الأصدقاء وزملاء المدرسة والتعرّض لتجربة صعبة أو اعتداء. لم أكن أدري أن وضع الأطفال صار بهذا السوء في عالمنا.

وبينما أنا أتصفح منشورات هذه المجموعة، رنَّ جرس الباب.

من قد يأتينا في مثل هذا الوقت؟! نظرت من العين السحرية لأجد عبد الله واقفًا أمام الباب.

شعرت بغضبٍ شديدٍ بمجرد رؤيته. أين كان طوال اليومين الماضيين؟! حسنًا، لن أفتح له الباب.

لكنه استمر في رن الجرس. فاضطررت أن أفتح له، حتى لا يثير صوت الجرس أعصاب حسن.

- حسنًا، ماذا تريد الآن؟! أين كنت طوال اليومين الماضيين؟!
- آسف جدًّا، لكنني ...
- لا مجال للاعتذارات. كيف تترك ابنك وتتركني يومين دون سؤال، ونحن في هذه الظروف الصعبة! هل اكتفيت منَّا الآن؟!
- بالطبع لا. ما الذي تقولينه؟!
- أين كنت؟ وماذا كنت تفعل إذًا؟
- كنت أقرأ سيرة الحسن بن علي.

- ماذا! تقرأ سيرة مَنْ؟

- الحسن بن علي. ألا تعرفينه؟!

- يبدو أنك تمزح الآن. وما علاقة الحسن بن علي بحسن ابننا! أم أن هذه كذبة لتحاول إخفاء حقيقة غيابك؟! وما هذا الذي تحمله في يدك؟ وردة وحقيبة! ماذا بداخلها؟

- بعض الحلوى لحسن.

- هل اختفيت يومين لتعود لنا بوردة وبعض الحلوى؟!

فجأة انفتح باب غرفة الضيوف، وخرجت منه ماما فاطمة مسرعة، وقالت لنا هامسةً:

- ما هذه الضوضاء؟! ألا تعلمان أن هناك طفلًا بالبيت يحتاج إلى بعض الراحة؟!

- انظري لابنك يا ماما فاطمة. يغيب يومين ثم يعود بوردة وحلوى.

- جلبت بعض الحلوى لحسن، حتى أصالحه.

قالت ماما فاطمة بهدوء:

حسنًا يا عبد الله. هذا لطف منك. لكن الطبيب نصحنا بالاعتماد على الطعام الصحي مثل الفواكه والخضراوات الطازجة والعصائر الطبيعية.

- حسنًا يا أمي. هل بإمكاني أن ألقي نظرة على حسن؟

عمَّ الصمت الجميع. وأخذت أتبادل النظرات مع ماما فاطمة.

- أرجوكما. هذا ابني. لم أره منذ يومين. وآخر مرة رأيته فيها كان هناك حبل غسيل مربوط حول رقبته.

- حسنًا. بإمكانك أن تدخل. لكن إذا شعرت أنه لا يرغب في لقائك ...

- سأخرج من تلقاء نفسي. اطمئنا.

تركنا عبد الله يدخل غرفة حسن. وذهبت ماما فاطمة لتجلس بجوار باب الغرفة من الخارج، تحسّبًا لأي رد فعل سلبي من حسن.

دخلت غرفتي وجلست على طرف السرير. وتركت العنان لدموعي كي تسيل. لا أعلم هل هي دموع الغضب من عبد الله أم دموع حزن على معاملتي الجافة له؟

كانت هذه أول مرة يجلب لي عبد الله وردة. وأول مرة أراه بكل هذه الرقة. وأول مرة أرى الدموع محبوسة في عينيه. تعجّبت من هذه التغيّرات التي حدثت في يومين فقط.

عبد الله الصارم العقلاني صار عاطفيًّا بشكل لم أتوقعه. فما السر وراء ذلك؟!

تذكَّرت كلامه عن الحسن بن علي، لكنني لم أفهم ما علاقته بكل هذا. لذلك فقد عزمت على قراءة بعض المعلومات عن شخصيته، حتى أعرف أكثر عن الرجل الذي كان سببًا في هذا التحوُّل المفاجئ لعبد الله.

أحضرت رفيقي في هذه المرحلة، جهاز اللاب توب. فتحته، وفتحت متصفح الإنترنت. وكتبت: الحسن بن علي.

حسن
(١)

- هل هو بخير الآن؟
- نعم يا ماما فاطمة هو بخير. اطمئني.
- تفضلي كوب الماء هذا. اشربيه؛ فلونك شاحب للغاية.

بدأت أسمع أصواتًا خافتةً من حولي. كانت في البداية مشوّشة، ثم بدأت تتضح شيئًا فشيئًا. كانوا ثلاثة أصواتٍ، ميّزت اثنين منها. كان الصوت الأول هو صوت جدتي فاطمة. اشتقت للعب معها كثيرًا. والصوت الثاني هو العم وائل الطبيب. أما الصوت الثالث فهو صوت أنثوي لم أعرفه. فتحت عيني بالتدريج كأني أخشى أن يُصيبني ضوء الغرفة بالعمى.

– لقد فتح عينه يا وائل.

أسرعت إليَّ جدتي. استندت بيدها على السرير. ثم انحنت عليَّ وقبّلت جبهتي وخدي.

– على رسلك يا ماما فاطمة. الولد ما زال يحتاج إلى الراحة. الحمد لله على سلامتك يا بطل.

قالها العم وائل ثم طلب من صاحبة الصوت الثالث – التي يبدو من ثيابها أنها ممرضة – أن تأتي معه. ذهبا إلى أحد أركان الغرفة، وتحدّثا بكلام خافت لم أسمعه.

جلست جدتي على طرف سريري، وهي تمسح على وجهي، وتتمتم بكلمات خافتة لم أميّزها. غالبًا تقرأ بعض آيات القرآن الكريم. فهذه هي عادتها عندما أمرض. نظرت إليها، ورأيت وجهها مليئًا بالدموع. أردت أن أمسح الدموع عن وجهها، لكنني كنت مُتعَبًا بشكل يجعلني أعجز حتى عن مجرد رفع يدي. أرجو ألا يكون ما حدث لي قد أثّر فيما تبقى من كفاءة عضلة قلبها.

بعد أن أنهت تمتمتها، قالت لي: «سأذهب لأبشر أباك بسلامتك وأتحدَّث معه قليلًا»، وخرجت من باب الغرفة.

انقبض قلبي عندما سمعت كلمة «أباك». فقد كنت جهّزت حالي أنني سأترك الدنيا ولن أراه أو أسمع اسمه ثانيةً.

وبينما أنا غارق في أفكاري، اندفعت أمي من باب الغرفة نحوي. انحنت فوقي وهي تقبّلني وتقول: «حسن. حبيبي. لقد ...».

صرخت بأعلى صوتي بشكلٍ لا إرادي، وأنا أُبعد جسدي عنها. اندفعت الممرضةً لتبعدها عني، وتطلب منها الخروج فورًا من الغرفة. خرجت أمي من الغرفة. واندفع العم وائل نحوي، قائلًا للممرضة:

- جهزي الحقنة المهدئة فورًا.

أمسك العم وائل ذراعي، وهو يطمئنني أن كل شيء سيكون بخير. أعطتني الممرضة الحقنة. كنت أشعر بتشنج شديد. ثم شيئًا فشيئًا بدأ التشنج يهدأ حتى غبت عن الوعي تمامًا.

(٢)

شعرت بدفء في جسدي ووجهي. فتحت عيني بالتدريج، فوجدت أشعة الشمس تخترق الزجاج لتسقط على سريري. وجدت جدتي تجلس على كرسي بجانب سريري، وهي تمسك بمسبحتها التي لا تفارقها. تأملت جدتي بتمعُّن. أحبها كثيرًا؛ فرغم عمرها الذي جاوز الستين ومرضها، فإنها تسهر بجانبي طوال الليل، حتى تدعو لي وتقرأ القرآن. القرآن الذي لا أعرف عنه الكثير. فالدين ليس مادة أساسية في مدرستنا. لم أكن أعرف في أي يومٍ نحن أو كم مرَّ من الوقت منذ تلك الليلة الحزينة.

انفتح باب غرفتي بهدوء، ودخلت منه الممرضة. وقالت لي:

- صباح الخير يا بطلنا. إن شاء الله تكون أحسن اليوم.

اكتفيت أن ابتسمت لها ابتسامة خافتة، فما زلت أشعر بإنهاك شديد.

- صحيح نسيت أن أعرفك بنفسي. أنا الممرضة صفية، أو بإمكانك أن تناديني بـ «ماما صفية».

هززت رأسي، وابتسمت ابتسامة خافتة. وسألت نفسي: هل يا تُرى لديها أبناء في مثل عمري؟ وهل تعاملهم بهذا الحنان أم أنه من دواعي العمل فقط؟ هل تهتم بهم أم تهملهم مثلما أهملتني أمي؟

استيقظت جدتي على صوت الممرضة. ودار بينهما حديث خفيف.

- صباح الخير، سيدتي.

- ناديني بـ «ماما فاطمة» أحسن. فالجميع يناديني بهذا اللقب المحبب لقلبي.

- حسنًا، يا ماما فاطمة. وأنا اسمي صفية. عذرًا لم أعرّفك بنفسي بالأمس بسبب ...

قالتها وسكتت، ربما لم ترد أن تذكّرني بما حدث بالأمس.

ثم أكملت قائلة:

- هل أعد لكِ كوبًا من الشاي يا ماما فاطمة؟

- نعم، يا صفيَّة إذا سمحتِ. وأعدي لنفسكِ أيضًا كوبًا. اعتبري نفسك في بيتك.

خرجت ماما صفية. وجلست جدتي على كرسيها، وأخذت وضعية الصلاة. تعجَّبت أي صلاة هذه في هذا الوقت؟!

بعد أن انتهت جدتي من صلاة ركعتين. نظرت لي فوجدتني متعجِّبًا. فضحكت وقالت لي: هذه صلاة الضُحى. ألم ترَ أيًّا من والديك يصليها؟

هززت رأسي نافيًا.

بدا عليها الأسف، وقالت: هما ركعتان يتم أداؤهما عند ارتفاع الشمس في السماء. وهي ليست فريضة بالطبع. فالفرائض خمسة فقط كما تعلم.

عادت ماما صفية حاملةً صينية عليها كوبان من الشاي، وكوب من اللبن، وتفاحة. أعطت جدتي كوب شاي، ثم ناولتني كوب اللبن والتفاحة. ثم وضعت الصينية.

نظرت لي وقالت:

- أمك استأذنتني أن تدخل هي بكوب اللبن لك، لكنني أحببت أن أسألك أولًا. هل أنت مستعد لرؤيتها؟ هي تقول لك إنها تحبك جدًّا، وتتمنى أن تأخذك في حضنها.

لم أرد. فلم أكن أعلم الجواب. هل أنا فعلًا مستعد لرؤيتها الآن أم أني سأصرخ كما فعلت بالأمس؟

تولت جدتي الرد عني:

- حسنًا، دعي الرجل يرتاح الآن. وليقابل أمه غدًا، حتى يكون بكامل صحته. هو أيضًا يحبها. أليس كذلك يا بطلي؟

لم أرد بلساني، لكنني رددت بقلبي.

عصير الكتب للنشر والتوزيع

نعم أحبها، وأحب أبي أيضًا. وأعلم أنهما يحباني. لكن ما فائدة الحب دون التعبير عنه؟! والتعبير عن الحب ليس فقط بالمدرسة الدولية ذات المصروفات الغالية، ولا بالهاتف الحديث، ولا بجهاز الـ play station كما يظن أبي. وليس فقط بالفطور المقدّم في الـ lunch box، ولا في كوب اللبن قبل النوم كما تظن أمي. بل في الاهتمام والرعاية واللعب والكلام معي حتى في أموري التافهة ومشاركتي ما أحب.

لقد فعلت ما فعلته من أجل لفت انتباههما إلى احتياجي لاهتمامهما. عنادي، وإهمالي لمذاكرتي، ورسوبي، وإقدامي على التخلص من حياتي، كانت كل هذه وسائل للتعبير عن حاجتي لاهتمامهما ورعايتهما. لكنَّ كلًّا منهما كان مشغولًا بعمله وتحقيق ذاته. ألست جزءًا من ذاتهما؟! ألست قطعة منهما كما يقولان دائمًا؟!

حاولت أن أوقف سيل هذه الأفكار في رأسي؛ عسى أن أحصل على بعض الراحة. رفعت كوب اللبن لفمي وارتشفت منه رشفةً. ثم قررت أن أُنصت للحديث الدائر

بين جدتي وماما صفية حول البيت والأطفال والأسعار وأحوال البلد والعمل والخضراوات والفواكه وكل شيء. كنت مستمتعًا بحوارهما رغم عدم اهتمامي بما يُقال. لكنني كنت سعيدًا بهذا الجو الدافئ الذي لم أنعم به مع والديَّ.

عصير الكتب للنشر والتوزيع

(٣)

في اليوم التالي، استيقظت مرتاحًا إلى حدٍ ما. فقد كان للجو الدافئ الذي غمرتني به جدتي وماما صفية أثرٌ كبير في هدوء نفسي. استيقظت لأجد جدتي نائمةً في كرسيها كالأمس. بينما لم تكن ماما صفية قد جاءت بعد؛ فهي تذهب إلى بيتها مساءً بعد أن أنام، وتأتي في الصباح.

كان جسدي قد أتعبني بسبب نومي في السرير لفترةٍ طويلةٍ، لذلك فقد قررت أن أخرج منه، وأقف أمام النافذة، حتى أستمتع بهواء الصباح النقي وشمسه الدافئة. وبعد أن شعرت براحةٍ في جسدي وروحي. جال بخاطري أن أفعل مثلما فعلت جدتي بالأمس، أن أصلي الضحى.

خرجت من غرفتي للمرة الأولى منذ تلك الليلة الحزينة. تأملت الردهة وغرفة أبي وأمي دقيقةً. كأني أنتظر

أن يخرج أيُ منهما منها. لكن هذا لم يحدث. فأكملت طريقي نحو الحمام. توضّأت، وعدت إلى غرفتي سريعًا. استقبلت القبلة، ثم رفعت يديَّ، وقلت: الله أكبر. كانت أول كلمة أنطق بها منذ الليلة الحزينة.

كان شعورًا غريبًا أول مرة أجرّبه. دائمًا ما يقولون لنا في صغرنا إننا يجب أن نصلي الخمس صلوات، حتى يرضى عنَّا الله، ويُدخلنا الجنة، ولا يُدخلنا النار. فكانت الصلاة عندي كالواجب المدرسي، يجب أن أؤديها سواء رغبت أم لا. أما الآن فإنني أصلي برغبتي. لم أستطع أن أحدد شعوري هذا، لكنه كان مريحًا على أي حال.

بعد أن أنهيت صلاتي، وجدت جدتي مستيقظة في كرسيها وتنظر إليَّ مبتسمةً، وهي تتمتم كعادتها. ألقيت بنفسي تلقائيًّا في حضنها، وبكيت كثيرًا حتى بللت صدرها بالدموع. ازداد شعوري بالراحة بعد أن بكيت. كأن صخرةً من الحُزن كانت جاثمة على صدري، ثم فتتها سيل الدموع وجرفها خارج جسدي.

بعد أن توقفت دموعي، أخرجت رأسي من حضن جدتي، وابتسمت لها. فوجدت الدموع تغرق وجهها

أيضًا. بعد أن مسحنا دموعنا، وصلت ماما صفية. دخلت مبتسمةً كعادتها. اندهشت من وجودي خارج سريري، لكنها ابتسمت سريعًا فامتزجت ابتسامتها بنظرة الدهشة. ثم قالت:

- صباح الخير. يبدو أن بطلنا صار أفضل بكثير الآن الحمد لله.

ردت عليها جدتي:

- نعم يا صفية. هي بركة صلاة الضحى. ما رأيك أن تُحضري الفطور لهذا البطل؟

- بالتأكيد. وسنضيف إليه اليوم بيضةً وقطعة عيش بالجُبن مكافأة له على نشاطه.

خرجت ماما صفية من الغرفة، ثم بعد ربع الساعة سمعنا طرقات على باب الغرفة.

قالت جدتي:

- ادخلي يا صفية.

انفتح الباب، لكنها لم تكن ماما صفية، بل كانت أمي.

نظرت لي جدتي بقلق، خشية أن أصرخ كما فعلت في المرة الماضية. لكنني لم أفعل. بل بقيت صامتًا ناظرًا نحو أمي بدون أي تعبير على وجهي.

وعندما اطمأنت جدتي لهدوئي، وعدم صراخي قالت:

- ادخلي يا فريدة.

دخلت أمي، وضعت صينية الفطور على الطاولة. ووقفت صامتة.

قالت جدتي:

- حسنًا، سأترككما معًا، وأذهب لأتوضأ وأصلي الضحى في غرفة الضيوف.

خرجت وأغلقت الباب خلفها.

اقتربت مني أمي بحذر، كأني سيارة مفخخة تخشى أن تنفجر في وجهها فجأة. كثيرًا ما أسمع لفظ سيارة مفخخة في نشرات الأخبار. وبعد أن وقفت أمامي تمامًا، انهمرت الدموع من عينيها. ثم احتضنتني بقوةٍ. غصت في حضنها تمامًا. كانت تبكي وهي ترتعش وتنتفض. كنت أسمع صوت دقات قلبها المتسارعة.

قالت لي من بين أنفاسها المتقطعة:

- حسن ... ابني ... حبيبي. كدت أن أفقدك يا روح قلبي. آسفة على كل شيء. آسفة على عدم فهمي وعدم اهتمامي. يعلم الله كم أحبك وأنني مستعدة أن أضحي بروحي من أجلك.

ثم سكتت وانهارت في بكاءٍ شديدٍ.

لم أرد عليها. لكنني قلت لها في نفسي: «هل كان الأمر يتطلب أن أرسب في الامتحانات، وأؤذي نفسي حتى تعلمي أن أحتاج إلى هذا الحضن، هذا الكلام، هذا الاهتمام، هذا الشعور. لا تقلقي يا أمي، أنا أيضًا أحبك. فقط لا أرغب في الكلام الآن. أرغب فقط في هذا العِناق».

كان هذا ثاني عِناق أحصل عليه في غضون نصف الساعة. شعرت حينها بهدوء داخلي كبير. كانت مساحة الهدوء تتمدد لتستولي على مساحة الحزن. لا أعلم لماذا يبخل الناس على أحبابهم بمشاعرهم وعناقهم؟! هل ينبغي أن نفقد أحبابنا حتى نتذكر حينها كم كنا نحبهم؟! لو أن محاولتي نجحت في الليلة الحزينة لكانت الآن أمي تحتضن جسدي الخالي من الحياة الممدد على الأرض.

بعد أن هدأت أمي، أمسكت رأسي وأخرجته من صدرها، ورفعتها نحو رأسها. قبّلتني على جبهتي وخدي، وأخذت تتأمل وجهي ثم قالت: «فليتناول البطل فطوره» وصفقت بيديها كأنها تستحضر عفريت المصباح السحري. وأمسكت الصينية وضعتها على رجلها، ثم بدأت تضع لي الطعام في فمي وهي مبتسمة، وما زال وجهها مليئًا بآثار الدموع.

فتحت هذه الجرعة الكبيرة من الحنان والاهتمام شهيتي للطعام. فتناولت الفطور إلا قليلًا. فقالت أمي: «ومكافأة لبطلنا الهمام على تناوله الفطور، فقد أحضرت له هدية أرجو أن تعجبه». ذهبت نحو باب غرفتي، أحضرت حقيبة قد وضعتها بجانب الباب من الخارج، ثم أغلقت الباب ثانيةً.

جلست على طرف السرير بجانبي. وضعت الحقيبة على رجلها وفتحتها. أخرجت منها كراسة رسم كبيرة Sketch ومجموعة أقلام رصاصية وملونة، والمجموعة الكاملة لأدوات الرسم مثل: الممحاة والمسطرة وغيرها. وقالت:

- كنت قد وعدتك بهذه الهدية في حال نجاحك. لكنني قد اكتشفت خطئي، فسواء نجحت أم لا، فلا ينبغي أن أحرمك من هوايتك التي تحبها. سأظل أدعمك حتى تصير أشهر رسام في العالم. ابتسمت لها. فأمسكت وجهي ثانية وقبّلت جبهتي، وهمست في أذني: «أحبك جدًّا. سأتركك الآن حتى تأتي لك الأفكار الملهمة، فأنا أعرفك تحب أن تكون بمفردك عندما ترسم».

ثم حملت صينية الفطور، وخرجت.

أمسكت أدوات الرسم أتحسسها وأتأملها بسعادة. أخيرًا صار عندي ورشة رسم صغيرة خاصة بي. بدأت أفكر فيما أرسم. لكن فجأة رنَّ جرس الباب. سمعت بعدها أصواتًا عاليةً في الخارج، ثم خفتت. بعد ذلك سمعت صوت طرق على الباب. انفتح الباب ببطء لأجد أبي أمامي.

عبد الله

بعد أن فتحت باب غرفة حسن، وقفت عند عتبة الباب ولم أدخل. كنت خائفًا من رد فعله. هل سيصرخ؟ هل سيبكي؟ هل سيركض نحوي؟ لا أعلم. وقفت ونظرت في عينيه مباشرةً. لأجده أيضًا ينظر لي، لكن بلا تعبير على وجهه. دخلت الغرفة ببطء، وأغلقت الباب خلفي.

اقتربت من سريره ببطء، كأنني أتوقع منه أن يصرخ في وجهي فجأة، لكنه حافظ على هدوئه. غريب أمر هذا الطفل، كيف يستطيع أن يُبقي وجهه هكذا خاليًا من التعبيرات؟!

جلست على طرف سريره صامتًا. حقيقةً أنا لم أجهّز شيئًا لأقوله. فقط أردت أن أكون بقربه. أن أتأمله. وأخيرًا وبعد الكثير من المحاولات المضنية، تكلمت بحذر:

- كيف حالك يا حسن؟

لم يرد بالطبع. فقد توقَّعت ذلك.

لا أعلم ما الأنسب في هذه الحالات. هل أحتضنه؟ هل أتحدث معه بجدية؟ أم أمزح قليلًا محاولًا تلطيف الأجواء بيني وبينه؟ في النهاية قررت أن أتقمص شخصية الأب التي لم أُتقنها من قبل، وأتحدث معه رجلًا لرجل. نعم، فللمرة الأولى أنتبه أن ابني لم يعد الطفل الصغير الذي تُسعده قطعة حلوى. لقد صار أكبر من هذا، خاصة بعد التجربة المريرة التي مرَّ بها. لذلك فقد قررت أن أطلق العنان لعقلي ولساني ليرتجلا. أخذت نفسًا عميقًا ثم قلت:

- حسن، أعلم أن كل كلمات الدنيا لا تكفي للاعتذار عما حدث. ما مررت به كان رهيبًا بحق. كنت صارمًا معك بشكل كبير. لكن يعلم الله أني فعلت هذا كله بدافع الحب. ربما كنت أفهم الحب بشكل خاطئ، أو بالأصح لا أفهمه على الإطلاق. كنت أظن أنني عندما أقسو عليك فإنك بذلك ستنشأ

قويًّا لا تكسرك الدنيا. لكن للأسف كنت أنا من كسرتك. لكن صدقني، لقد تعلمت الدرس جيدًا. لقد كان درسًا قاسيًا للغاية علينا جميعًا. لكن المهم أن نتعلم منه، ولا نكرر أخطاءنا.

أخرجت ورقةً صغيرةً من جيبي، الورقة التي تركها حسن بجانبه في تلك الليلة الحزينة، وقلت له: واعلم جيدًا، إن كان هناك فاشل في هذه الغرفة، فهو أنا بالتأكيد.

سكتُّ برهة ثم قلت بلهفةٍ حقيقةٍ: أحبك جدًّا يا بني.

بدأ صوتي يختنق، وعضلات وجهي تتقلص. لم أستطع أن أتمالك نفسي أكثر من هذا. فأطلقت سراح دموعي، كي تنهمر بشدة. كانت هذه أول مرة أبكي أمام شخصٍ. ويشاء الله أن يكون هذا الشخص هو ابني. ألقيت بنفسي عليه، وأنا أبكي وأنتحب. بكيت كثيرًا حتى بللت صدره. بعد أن انتهيت من البكاء، رفعت وجهي. نظرت إليه. كانت علامات الدهشة تعلو وجهه. لم أتعجّب من هذا. لطالما أخبرته أن الرجل لا يبكي، ثم ها أنا أبكي بحرقة بين يديه.

نظرت إليه، ومسحت على شعره. نظرت إليه بتمعّن. شعرت كأنه كبر فجأة. طفلي الصغير صار على أعتاب مرحلة المراهقة. شعرت كأني أنظر لنفسي.

أمسكت حقيبة الحلوى، وقلت له:

- كنت قد أحضرت لك بعض الحلوى التي تحبها، لكن جدتك أخبرتني أن وائل منعك عنها. حسنًا، هذا أفضل، فالحلوى ضارة على أي حال. لكني أحضرت لك شيئًا آخر.

أدخلت يدي في الحقيبة، وأخرجت منه رزمة من الأوراق. وضعتها بجانبه على الطاولة. لمحت كراسة وأدوات رسم جديدة بجانبه على السرير. ابتسمت وقلت له:

- حسنًا، يبدو أن أمك قد سبقتني وأحضرت أدوات الرسم. لكني قد أحضرت لك شيئًا آخر أرجو أن تحبه. رزمة الأوراق هذه هي بداية كتاب جديد بدأت أكتبه. ألم أقل لك إن الكثير من الأمور قد تغيَّرت! لقد عدت إلى القراءة والكتابة ثانيةً. وهذا

بفضلك، وبفضل ما فعلت، وبفضل هذا الشخص الذي أكتب عنه الآن. لقد غيّرت حياتنا دون أن تدري. أرجو أن تقرأ هذه الأوراق، وتخبرني رأيك فيها. فنحن الآن أصدقاء. أليس كذلك؟

نظر لي دون أن يتكلم. لكن تعبيرات وجهه كانت هادئة، وهو ما أراحني نسبيًّا. على الأقل لم يرفض وجودي. فأكملت كلامي قائلًا:

- يبدو عليك الإرهاق. لا أريد أن أكون ثقيلًا عليك. سأتركك ترتاح قليلًا. لكن أعلم جيدًا أنني دائمًا موجود لأجلك. وسأكون دائمًا عند حسن ظنك. سأعود لك غدًا إن شاء الله، حتى أطمئن عليك، ونتناقش فيما قرأت. صحيح، نسيت أن أخبرك أن بطل الكتاب يحمل نفس اسمك. أو بالأصح أنت تحمل نفس اسمه، فهو أول من سُمّي في العرب به.

اقتربت منه واحتضنته بعمق، ثم قبّلت جبهته. وهمست في أذنه:

- أحبك يا ابني، ويا صديقي.

شعرت برعشة سرت في جسدي وجسده، لكن لم يرد. اقتربت من باب الغرفة وأنا أتلكأ. ربما كنت أنتظره أن يقول لي: «وأنا أيضًا أحبك يا أبي». لكنه لم يفعل. خرجت من الغرفة، وأغلقت الباب خلفي.

بعد أن خرجت من الغرفة، أخذت نفسًا عميقًا. ذهبت إلى غرفة الضيوف. كانت أمي جالسة على الأريكة، بينما لم أجد فريدة. أشارت لي أمي أن أجلس بجوارها. جلست وأنا أتجنّب النظر إليها. ابتسمت لي، وقالت:

- تتجنّب النظر إليَّ مثلما كنت تفعل وأنت صغير عندما تفعل شيئًا يُغضبني. لكنك الآن لم تعد صغيرًا حتى أعنّفك أو أضربك. بل صرت أبًا لفتى صغيرٍ على مشارف مرحلة المراهقة.

رفعت يدها نحو وجهي، فوضعت يدي على خدي بشكلٍ تلقائي. تذكّرت ما حدث آخر مرة. لكنها ضحكت وأبعدت يدي عن خدي، ثم مسحت عليه وقبّلته. فأمسكت يدها وقبّلتها، وقلت لها:

- آسف جدًّا يا أمي. لقد خذلتك. سامحيني.

- سامحتك يا بني من قبل أن تعتذر. الأم دائمًا ما تسامح أولادها حتى إن لم يعتذروا. المهم أن تكون تعلمت مما حدث. فارق كبير يا بني بين الحزم والقسوة. وابنك الآن لم يعد صغيرًا حتى تُسرف في عقابه أو تحاول التحكّم به. وقد رأيت ما صنع بنفسه عندما فاض الكيل به.

- لقد تعلمت الدرس تمامًا يا أمي. كان درسًا قاسيًا، لكنه غيَّر نظرتي للكثير من الأمور.

- هل تكلمت مع حسن؟

- نعم. لم يرد عليَّ. لكنه على الأقل لم يصرخ في وجهي كما كنت أخشى.

- اطمئن يا بني. سيلين معك بالتدريج، وتكون الأمور أحسن مما كانت.

- إن شاء الله. لقد أعطيته رزمة أوراق كتبتها عن الإمام الحسن بن علي؛ فأنا أقرأ سيرته حاليًّا.

- الحسن بن علي! ولماذا هو تحديدًا من بين كل الصحابة الكرام؟

- لا أعرف تحديدًا. عندما بدأت أقرأ سيرته في البداية كنت أنوي كتابة كتاب أو رواية عنه فقط من باب الترويح عن نفسي. أما الآن فالوضع صار مختلفًا، صرت أشعر أنني مرتبط روحيًّا به. كأن بيننا رابطًا خفيًّا يمر عبر القرون.

- إن شاء الله يقرّ الله عينك بحسن ابنك، وتراه مثل الحسن بن علي.

- أرجو هذا. وسأسعى له بكل وقتي وجهدي. وماذا عن فريدة؟ أين هي الآن؟

- في غرفتها. اتركها ترتاح قليلًا. وحاول أن تصلح الأمور بينكما في الأيام المقبلة. هي تحبك.

اتسعت عيناي، وقلت بلهفة: حقًّا. هل هي من أخبرتك بذلك؟

ضحكت أمي، وقالت:

- لم تقل. لكن أنا امرأة عجوز وأعرف المرأة عندما تحب.

- حسنًا. هل تسمحين لي بالبقاء في المنزل هنا أم أعود لبيت أبي؟

- بل ابقَ هنا. حتى تكون بجانب ابنك وزوجتك. بإمكانك المبيت هنا في غرفة الضيوف حتى تعود الأمور لمسارها الطبيعي بينك وبين فريدة. واطمئن، أنا سأسعى للصلح بينكما.

- حسنًا يا أمي. لا أعرف كيف أشكرك على كل ما تفعلينه من أجلنا.

- تشكرني بأن تعدني بالاعتناء بابنك وزوجتك. وتقدّم مصلحتهما على أي شيء آخر.

- أعدك يا أمي.

عصير الكتب للنشر والتوزيع

الحسن بن علي

- مات رسول الله ... مات رسول الله.

هكذا جاء صوت زوجة جدي السيدة عائشة من حجرتها خلف المسجد. ذُهل الناس من وفاة جدي، كأنهم توقّعوا بقاءه معهم أبدًا. رأيت أبي يومها قد قعد مكانه في المسجد غير مصدق. وأجهش الجميع بالبكاء. وقف عمر بن الخطاب شاهرًا سيفه مهددًا كل من يقول بوفاة جدي بأنه سيقطع رأسه. بينما دخل أبو بكر الصديق على جدي ثم خرج من عنده باكيًا قائلًا: «من كان يعبد محمدًا فإن محمدًا قد مات، ومن كان يعبد الله فإن الله حي لا يموت». فبدأ الناس يعودون إلى رشدهم بالتدريج.

صلى الناس على جدي جماعات دون إمام. صلى عليه الرجال أولًا، ثم النساء، ثم نحن - الأطفال -. كان الموقف رهيبًا عليَّ. فبينما يبكي الناس رسول الله ﷺ،

أبكي أنا جدي الحبيب. بعد الصلاة عليه، ذهب أبي مع بعض الرجال، ليقوموا بدفن جدي في نفس مكان وفاته، في حجرة السيدة عائشة.

لو كان الحزن خارج بيتنا قيراطًا، فإن الحزن داخل بيتنا كان ألف ألف قيراط. لم أرَ أمي ضاحكة منذ ذلك اليوم. وكان حزن أبي حزنين: حزن على وفاة رسول الله وابن عمه ووالد زوجته، وحزن على حزن أمي.

لكن الله كان رحيمًا بأمي، فقد رحلت عن الدنيا بعد وفاة جدي ببضعة أشهر. وهكذا فقدت جدي وأمي في غضون ستة أشهر تقريبًا. ووجد أبي نفسه وحيدًا مع أربعة أطفال: أنا وأخي الحُسّين وأختاي زينب وأم كلثوم. لكنه كان صابرًا قويًّا حنونًا فأحسن تربيتنا على أكمل وجه.

كانت الأعوام التالية أعوامًا مصيريةً في حياة الإسلام، فقد كان أبي حريصًا على إطلاعنا على كل أخبار الإسلام رغم صغر سننا. كان يعتبرنا إخوته الصغار وليس مجرد أبنائه. وهو ما كان له أكبر الأثر في تشكيل شخصياتنا القيادية التي ستتخذ قرارات مصيرية فيما بعد.

فبعد وفاة جدي، ارتدت قبائل كثيرة من العرب عن الإسلام. بل إنهم قد حاولوا الهجوم على المدينة المنورة؛ للقضاء على الإسلام في عقر داره. فأرسل أبو بكر الصديق - وقد صار قائدًا للمسلمين بعد جدي - الجيوش للقضاء على هذه القلاقل. وبعد ذلك تمكّن المسلمون من القضاء على الفتنة نهائيًّا، بدأوا في التوسّع شمالًا جهة الشام والعراق.

لكن خلافة أبي بكر لم تستمر طويلًا، فقد رحل إلى جوار ربه بعد عامين تقريبًا في الحُكم. وخلفه في الحكم عمر بن الخطاب. كان عمر شديد الحب لنا. فقد كان أبي من كبار مستشاريه. كان يستشيره في الكثير من الأمور الفقهية والسياسية مثل ذهابه لاستلام مدينة بيت المقدس من الروم.

أذكر أنه في أحد الأيام قد جاءته ملابس من اليمن، فاجتمع الناس إليه في المسجد وفرّقها عليهم. ثم رآني أنا وأخي الحُسَين ولم نأخذ من الملابس شيئًا. فأرسل إلى واليه في اليمن يأمره أن يرسل إليه ملابس جديدة على وجه السرعة. فكساني بها أنا وأخي.

وقد توّج عُمَر هذه العلاقة القوية بالزواج من أختي أم كلثوم، وأنجبت له زيدًا ورقية.

وفي عهد عُمر انطلقت الجيوش الإسلامية شرقًا وغربًا تفتح البلاد الواحدة تلو الأخرى.

ونتيجةً لاتساع رقعة الإسلام، فقد زاد عدد المبغضين لعُمَر خصوصًا من الفرس والروم الذين أزال عُمَر دولهم. فقام أحد موالي الفرس ويُدعَى أبو لؤلؤة المجوسي بطعن عُمَر في أثناء إمامته للناس في المسجد النبوي. لتنتهي بهذا عشرة أعوام زاهرة من حُكم الفاروق.

لكن قبل وفاته كان قد حدَّد ستة من كبار الصحابة لاختيار خليفة من بينهم، كان من بينهم أبي. وانحصر الاختيار في النهاية بين أبي وعثمان بن عفان. ثم استقر الرأي في النهاية على عثمان.

كنت قد جاوزت العشرين من عمري في بداية عهد عثمان. فسُمِح لي أخيرًا بالالتحاق بالجيش الإسلامي. فقد كانت هذه أمنيّتي منذ الصغر، أن أُجاهد في سبيل الله. كانت البداية حين أرسل عبد الله بن سعد بن أبي السرح

إلى عثمان بن عفان يطلب منه إمداده بجيش من المدينة للمشاركة في فتح إفريقية. فبعث عثمان جيشًا من الصحابة وأبنائهم. كنت فيهم أنا وأخي الحُسَين وغيرنا الكثير. ففتحها الله على أيدينا.

ثم بعد ذلك وجّهنا عثمان للانضمام لجيش سعيد بن العاص للمشاركة في فتح طبرستان. وهكذا انطلقت بصحبة أخي شرقًا وغربًا مجاهدين في سبيل الله. وهو ما أكسبنا الكثير من الخبرة في الحرب والتخطيط العسكري.

كانت الأمور تسير في بداية عهد عثمان على ما يرام. لكن انفتاح العرب على غيرهم من الأمم، ودخول الكثير من الخلق في الإسلام بشكل غير مسبوق، بالإضافة إلى سياسة التخفيف التي اتبعها عثمان خلافًا لسياسة التقشف التي كان يتبعها عُمَر من قبل كان له تأثير كبير على تغيير نسيج المجتمع الإسلامي.

فبدأت الأوضاع تتبدل في النصف الثاني من خلافة عثمان. وبدأ الكثيرون ممن دخلوا في الإسلام حديثًا، الذين لم يتشرّبوا تعاليمه بعد، في إثارة الفتن بين الناس. وكان هذا إنذارًا ببداية الفتنة الكُبرى التي غيّرت وجه

المجتمع الإسلامي إلى الأبد. والتي أراد الله أن أكون أنا وأبي وأخي في القلب منها.

عصير الكتب للنشر والتوزيع

فريدة
(١)

أنهيت قراءة جزء لا بأس به من سيرة الحسن بن علي، خاصة الجزء المتعلق بطفولته وبدايات شبابه. كانت هذه أول مرة أقرأ سيرته؛ فأنا لم أكن مهتمة كثيرًا بقراءة التاريخ والسِيَر قبل ذلك. كما أن سيرته لم تأخذ حظها من الانتشار. ربما لأنه - كما يبدو مما قرأت حتى الآن - كان شخصًا هادئًا مسالمًا، والناس يميلون أكثر لسِيَر المغامرين المندفعين.

أكثر ما أعجبني هو أن اسم ابني حسن على اسم الحسن بن علي. حتى إنني في بعض المواقف تخيَّلت ابني مكانه. لكن شتَّان بين الاهتمام والرعاية والحنان الذين تلقاهم الحسن بن علي، وبين الإهمال والجفاء اللذين تلقاهما

حسن ابني. لعل قراءتي وعبد الله لهذه السيرة هي علامة لنا على ضرورة تغيير معاملتنا لابننا. فرغم كل ما حدث، ما زال لدينا وقتٌ لنصلح ما أفسدناه بغبائنا وجهلنا بأمور التربية.

كنت قد قضيت وقتًا طويلًا أمام شاشة اللاب توب. أتنقل بين صفحات الإنترنت. فتارةً أقرأ عن سيرة الحسن بن علي، وتارةً أدخل على مجموعة الدعم التي يديرها الاختصاصي النفسي. كان الاختصاصي قد نصحني بعدم ترك حسن للفراغ أوقاتًا طويلةً، حتى لا تزحف إليه الأفكار السلبية ثانيةً. وأرشدني إلى ضرورة شغل وقت فراغه بما يحب من الأعمال والهوايات. تذكّرت أن حسن يحب الرسم. ولذلك فقد اشتريت له كراسة رسم كبيرة وأدوات رسم كاملة وأعطيتها له. وأكون بذلك قد أصبت عصفورين بحجرٍ واحدٍ: من ناحية جعلت حسن يشغل وقت فراغه بشيء يحبه، ومن ناحية أستنتج من خلال رسوماته ما يفكّر به.

أحرقتني عيني من كثرة النظر في شاشة اللاب توب، فقررت أن أتركه قليلًا وأذهب لأقف في شرفة غرفة

الضيوف. فتحت باب غرفة الضيوف، لأجد عبد الله أمامي. تسمّرت مكاني؛ فلم أكن أعلم أنه سيبيت ليلته هنا. عدت إلى غرفتي سريعًا، وأغلقت الباب خلفي. لا أعلم لماذا شعرت حينها أنني أمام رجلٍ غريبٍ! حتى إنني قد استغربت رد فعلي.

- هل أكره عبد الله؟! سألت نفسي هذا السؤال.

لكن سرعان ما جاء الرد من نفسي أيضًا: لا، لا أكرهه. بل ما زلت أحبه.

شعرت كأن صوتين يتناطحان بداخلي.

- لقد أهملني كثيرًا، ولم يهتم إلا بنفسه وعمله وصراعه على إدارة الشركة.

- لا تبالغي. فهو لم يكن بهذا السوء. أنتِ تعلمين أنه يحبك، لكنه لم يكن يعرف كيف يعبّر عن حبه هذا. أنتِ تعلمين أن الرجال في عالمنا العربي يتم تلقينهم منذ الصغر أن الرجل لا يجب أن يعبّر عن مشاعره. أن الرجل لا يبكي. أن الرجل لا يدلل امرأته وإلا صار لعبةً بيدها. هو نتاج موروثات خاطئة.

- لكنه استسلم لهذه الموروثات، ولم يحاول أن يقاومها من أجلي. اختار هذه الرجولة الزائفة على حسابي.

- ألا ترين أنه قد تغيَّر خلال الأيام الماضية؟! ألم تري رقته عندما جاء اليوم؟! ألم تري الدموع المحبوسة في عينيه؟! ألم يجلب لكِ وردة لأول مرة منذ فترةٍ طويلةٍ؟!

- وردة! يريد أن يمحي كل ما حدث بوردة!

- لا تكوني قاسية. بالطبع الأمر لا يقتصر على وردة فحسب. فالوردة كما نقول «عربون محبَّة». دليل على رغبته في إصلاح ما فسد. كما أنه ما زال مبتدئًا في الحب والاهتمام. ألم تقولي الآن إن الرجل في عالمنا العربي يتم تربيته على عدم التعبير عن مشاعره؟! هو حقًّا لا يعرف كيف يعبّر عنها. هو بالفعل يحاول أن يتغيّر ويصلح ما حدث.

- وماذا لو كانت هذه مجرد ثورة عاطفية مؤقتة، وسرعان ما ستحدث ثورة مضادة بداخله لتقضي عليها؟!

- حينها سيكون هو من قضى على هذه العلاقة. وتكونين أنتِ قد أديتِ ما عليكِ. ويُصبح بإمكانك حينها الانفصال عنه بدون ندم. فقط امنحيه فرصة. لأجل ابنك حسن.

- حسنًا، سأعطيه فرصةً، فرصةً واحدةً فقط. وبالتأكيد سأتركه يُعاني قليلًا حتى أرضى عنه. ليس تعذيبًا له، بل لأختبر مدى جديته في مشاعره واهتمامه.

- بالتأكيد لا بدَّ أن يُعاني قليلًا من أجلك. أتفق معكِ في هذا. فالرجال لا بدَّ أن يركضوا خلفنا حتى لو كنّا نحن المخطئات. ما رأيكِ أن تطمئني على حسن الآن. وتتركي أمر أبيه للغد؟

خرجت من الغرفة، وجدت عبد الله واقفًا أمام باب غرفة الضيوف كأنه ينتظرني. تظاهرت كأني لم أنتبه لوجوده، وأكملت طريقي نحو المطبخ، حتى أحضِّر لحسن كوبًا من العصير.

دخلت غرفة حسن، فوجدته يمسك برزمة من الأوراق يقرأها بجديَّة. لم أرد مقاطعته؛ فأنا سعيدة بانشغاله رغم أنني لم أعرف ما يوجد في هذه الأوراق. وضعت كوب

العصير بجانبه، وقبّلت رأسه. همست في أذنه: أحبّك كثيرًا. ثم ذهبت لغرفتي متجاهلة عبد الله.

عصير الكتب للنشر والتوزيع

(٢)

على مدى الأيام التالية، كانت الأمور تتحسّن شيئًا فشيئًا. حسن حالته النفسية صارت أفضل. يبدو أن ماما فاطمة وصفية تقومان بدور رائع. تحسّنت شهيّته بشكل كبير. وأفضل شيء أنه صار يأكل طعامًا صحيًّا، وتوقّف عن أكل الحلوى والوجبات السريعة. صدق من قال: رُبَّ ضارةٍ نافعة.

أما بخصوص عبد الله، فقد واصل محاولاته في التقرّب منّي. لكنني كنت أستخدم ذكاء الأنثى في التعامل معه. فكنت أتجاهله أحيانًا، وأعطيه أملًا أحيانًا. لم أكن أفعل ذلك رغبةً في تعذيبه أو كراهيةً له، لكني كنت أختبر مدى جديَّته. وقد بدأت أشعر بها فعلًا. لقد كان التغيير

الذي حدث له حقيقيًّا، مثلما كان التغيير الذي يحدث لي حقيقيًّا أيضًا.

كنت أجلس في غرفتي كعادتي بعد أن أعطيت حسن فطوره. فتحت صديقي اللاب توب، حتى أواصل قراءة سيرة الحسن بن علي. فرغم عدم اهتمامي بالتاريخ قبل ذلك؛ فإن سيرته قد جذبتني. ربما بسبب التغيير الذي أحدثته في حياة عبد الله. أو ربما بسبب نقاء سريرته التي نفتقدها هذه الأيام. لكن فجأة، سمعت طرقًا على باب غرفتي. فكّرت أنها ربما تكون ماما فاطمة، فهي الوحيدة التي تأتي لغرفتي هذه الأيام. فقلت:

- ادخلي يا ماما.

انفتح الباب، لكنها لم تكن ماما فاطمة، بل كان ابنها، عبد الله.

- هل تسمحين لي بالدخول؟

تسمّرت مكاني، وانعقد لساني. ثم وجدت في نفسي شوقًا إليه وإشفاقًا عليه. فقلت له بصوت خافت: ادخل.

دخل بهدوء وأغلق الباب خلفه. اقترب مني ببطء. ودار بيننا حوار مليء بالمشاعر المضطربة، والأصوات الخافتة المرتعشة.

- هل أنتِ بخير، فريدة؟

- نعم.

- ألن تسأليني أيضًا إن كنت بخيرٍ أم لا؟

- هل أنت بخير ... عبد الله؟

- كأني أول مرة أسمعك تنطقين اسمي. لأول مرة أشعر أن اسمي جميل هكذا.

ابتسمت ولم أرد. لكن هذه المرة ليس عنادًا، بل خجلًا.

اقترب مني أكثر. أخذ نفسًا عميقًا ثم قال:

- اعذري صمتي؛ لأني لأول مرة أحس بهذا الشعور. لا أقصد شعور الحب بالطبع، فأنا أحبك منذ أول يوم رأيتك فيه. لكن أقصد شعور الاشتياق، اللهفة، الخوف من أن أخسرك. مهما وصفت فلن أستطيع وصف شعوري حاليًّا.

اقترب مني أكثر، ثم احتضنني بعمق وهدوء كأنه يخشى أن أنكسر بين ذراعيه. أغمضت عيني، بكيت كما لم أبكِ من قبل. وكنت أشعر ببكائه هو الآخر. لا أعلم كم امتد هذا العناق. ربما لحظات أو ساعات أو أيامًا. لن أبالغ إذا قلت أعوامًا. لقد اختصر هذا العناق كل شيء. اختصر سنوات الزواج، وكلمات اللوم والعتاب، ومشاعر الحب والاشتياق. فتحت عيني وأنا أشعر أن عمرًا قد مضى. حتى إنني وجدت صعوبة في فتحهما، كأنني طفل قد خرج من رحم أمه لتوه. شعرت كأن هذا العناق هو ولادة جديدة لي وله ولعلاقتنا.

نظرت لوجهه، فوجدته مليئًا بالدموع. مسحت دموعه بيدي. كان كالطفل تمامًا. صدقت ماما فاطمة حين قالت لي إن الرجل يكون كالطفل بين يدي محبوبته. حقيقةً فإن نصائحها كانت لها دورٌ كبيرٌ في استمرار هذه الزيجة. وفي هذه اللحظة التي نعيشها الآن.

أدخل يده في جيب قميصه وأخرج قلادة ذهبية وضعها حول رقبتي. لمستها بيدي وبكيت مرةً أخرى. لا أعلم من أين أتت كل هذه الدموع.

ابتسم وقال لي: خشيت أن آتي بوردةٍ مرةً أخرى، فتصرخي في وجهي كما فعلتِ المرة الماضية.

ضحكت من كلامه، وقلت له ضاحكةً: أيها الأبله، تُغضبني وتختفي ليومين دون سبب ثم تعود لتصالحني بوردة.

قهقه قائلًا:

- لا تكوني ظالمة، كان معي أيضًا حلوى. لكنكِ لم تأخذيها أنتِ أو حسن.

- وبالتأكيد أكلتها كلها وحدك، ولم تترك لنا شيئًا.

قال لي غائظًا:

- نعم، وكان طعمها لذيذًا جدًّا.

ضحكنا معًا، وتعانقنا ثانيةً. ثم همس في أذني:

- أحبُّك جدًّا، ولن أبتعد عنكِ ثانيةً.

ابتسمت بخجلٍ قائلة:

- وأنا أيضًا أحبك.

كان هذا أجمل يوم في حياتي.

لكن فجأة رن هاتف عبد الله. قال لي: لن أرد عليه. أريد أن أمضي الباقي من عمري معك وحدك.

- وأنا أيضًا حبيبي. لكن من الأفضل أن ترى مَن المتصل. لقد انعزلنا عن العالم الخارجي منذ أسبوع تقريبًا. هل نسيت عملك وشركتك؟ لا أريد أن أكون عائقًا في حياتك، بل سأكون دافعًا لك. هيَّا، أجب الهاتف.

أجاب عبد الله الهاتف. تغيّر وجهه ثم أنهى المحادثة قائلًا: ألم أقل لكِ إنه من الأفضل ألا أجيب! يجب أن أذهب للشركة الآن. سمير يُخرب كل شيء.

- حسنًا حبيبي. اذهب الآن واعتنِ بأمورك. واطمئن كل شيء سيكون بخير. ولا تنفعل مهما حدث!

- طالما أنتِ وحسن معي سيكون كل شيء بخير. في أمان الله حبيبتي.

- في أمان الله حبيبي.

خرج عبد الله مسرعًا.

تحسست وجهي فوجدته دافئًا. لم أشعر بهذا الدفء منذ فترةٍ طويلةٍ. جلست على سريري. فتحت جهاز اللاب توب. وأكملت قراءة سيرة الحسن بن علي.

عصير الكتب للنشر والتوزيع

الحسن بن علي

كانت أحداث الفتنة رهيبة وشديدة الوطأة على الجميع، خاصة المهاجرين والأنصار. فهؤلاء الصحابة الكرام الذين اعتادوا على مواجهة أعداء الإسلام معًا في حياة الرسول ﷺ وبعد وفاته وجدوا أنفسهم فجأة يواجهون مسلمين مثلهم. يشهدون أن لا إله إلا الله، وأن محمدًا رسول الله.

وقد كان لاتساع رقعة الدولة الإسلامية دور رئيسي في هذه الفتنة، لثلاثة أسباب:

أولًا: لأن العرب لأول مرة في تاريخهم يتمددون خارج الجزيرة العربية. وهذا ليس تمددًا عاديًّا، بل إنهم يقودون الأمم وأهلها. وهذا تسبب في حدوث بعض الصدامات

مع أهل هذه البلاد، وعلى رأسها مصر والعراق؛ فقد زادت النعرات القبليّة، وظن بعض الجهلاء العرب أن انتماء الرسول ﷺ لقبيلة قريش يُعطي لهم الأفضليَّة على غيرهم من المسلمين. لذلك فقد انطلقت من مصر والكوفة الجماعات التي قتلت عثمان.

ثانيًا: فتحت الدنيا أبوابها على مصاريعها أمام العرب بأنواع الترف والرفاهية كافة التي لم يعهدها العرب من قبل. وأدَّى هذا إلى انشغال الكثير من المسلمين عن آخرتهم، وركضهم وراء الدنيا وملذَّاتها. والدنيا دار فتنة.

ثالثًا: اتساع رقعة الدولة أضعف سلطة الخليفة عليها. فقد تمددت البلاد من فارس شرقًا حتى إفريقية غربًا، ومن الشام شمالًا حتى اليمن جنوبًا. وتسبب هذا في تسلط بعض الولاة، وسوء معاملتهم لرعاياهم. ورغم أن عثمان حاول تدارك الموقف بعزل بعض الولاة؛ فإنه قد سبق السيف العذل، وانطلق أهل هذه البلاد نحو المدينة.

فجاءت جماعات من الناس من مصر والعراق إلى المدينة؛ ليشكوا الولاة إلى الخليفة مباشرةً بعد أن فاض

بهم الكيل. وقد كان لأبي دور مهم في الوساطة بين الخليفة والناس. ونجحت وساطة أبي وكبار الصحابة في تهدئة المحتجين وعودتهم إلى بلادهم. إلا أن مكائد قد حدثت، فعاد المحتجون مرةً أخرى إلى المدينة. لكنهم هذه المرة كانوا مصرين على عزل عثمان.

كان هذا الأمر جللًا، فارتجت المدينة بسببه. فرغم اعتراض عدد من الصحابة على سياسات عثمان المتساهلة من الولاة؛ فإن مسألة عزل الخليفة كانت غير مقبولة من قِبَل أغلب الصحابة. والأمر ليس متعلقًا بعثمان فقط، بل هو متعلق بمنصب الخليفة ذاته. فلو سُمِح لبعض الناس أن يخلعوا الخليفة، فإن هذا سيهدر هيبة المنصب، ويفتح الباب بعد ذلك أمام أي جماعة من الناس أن تتمرد على الخليفة وتخلعه. فلا يثبت أي خليفة في منصبه أيامًا معدودة. لذلك فقد رفض عثمان وأغلب الصحابة فكرة عزل الخليفة، وحاولوا التوصُّل إلى حل وسط يُرضي جميع الأطراف.

لكن الأحداث كانت أسرع من مساعيهم. والفتنة كانت أشد من الجميع. فقد حاصر المتمردون بيت الخليفة،

ومنعوا عنه الطعام والشراب، ومنعوه من الخروج من بيته. بل أصروا على قتله. لذلك فلقد هبَّ الكثير من أبناء الصحابة للدفاع عن عثمان. كنت في مقدمتهم أنا وأخي الحُسَين وعبد الله بن الزبير ومحمد بن طلحة. أسرعنا نحو بيت الخليفة حتى ندفع عنه المهاجمين.

كان الأمر جنونيًّا. أنا الذي كنت أتمنى أن أكبر سريعًا حتى أحمل السلاح وأقاتل في سبيل الله، أجد نفسي فجأة وجهًا لوجه أمام مسلمين مثلي في معركة الجميع فيها خاسر. تكاثر المهاجمون أمام بيت الخليفة. حاولت دفعهم دون قتلهم. فكيف أقابل ربي يوم القيامة ويدي ملطخة بدماء مسلم؟! حتى لو أخطأ هذا المسلم، كيف أقتله؟! كان الأمر عسيرًا للغاية. كنت أدفع الناس عن الدار وأتجنّب قتلهم أو إصابتهم. أتلقَّى ضربات السيوف، ولا أردها.

وبالطبع فقد كانت النتيجة محسومة. فريق يُهاجم دار الخليفة وقد عقد العزم على قتله في مواجهة فريق يتلقّى الضربات دون أن يردها. اقتحم الناس بيت الخليفة،

وقتلوه وهو يقرأ القرآن. يا ليتني لم أحيا حتى أحضر هذا اليوم!

أُصبت بجراحٍ عديدة هذا اليوم حتى إنني قد حُمِلت جريحًا.

كان الأمر شديد الوطأة على نفسي. فلأول مرة أجد نفسي وجهًا لوجه ضد مسلمين مثلي. ولأول مرة يترك المسلمون قتال أعدائهم ليقاتلوا بعضهم بعضًا. ولأول مرة أشعر بهذا العجز، أن يُقتَل الخليفة وأنا أقف على بابه. ولأول مرة تُنتهَك حرمات مدينة جدي (صلى الله عليه وسلم) بهذا الشكل، ومِن مَن؟! من مسلمين. ترك هذا اليوم في نفسي أثرًا لا يزول.

وتم دفن عثمان ليلًا؛ فلم يرضَ هؤلاء الذين قتلوه أن يُدفَن إلا ليلًا وخِلسةً. كان مقتل عثمان أشد وطأة علينا من مقتل عُمَر؛ فقد قُتِل عُمر بيد غير مسلمة أما عثمان فقُتِل بأيدٍ مسلمة. كما أن عُمَر قد أوصى ستة من كبار الصحابة أن يتولى أحدهم الخلافة بعده أما عثمان فمات ولم يوصِ. وهنا شعر المسلمون بخطورة فراغ

منصب الخلافة، خاصة مع الظروف الحالية، ومع سيطرة المتمردين على المدينة.

وأقبل كبار الصحابة وأهل المدينة على أبي يلحّون عليه في قبول الخلافة؛ حتى لا يُترّك المنصب شاغرًا. اضطرب قلبي حينها، فما حدث لعثمان من الوارد أن يحدث لأبي في ظل الظروف الحالية. لقد أصاب الفقد قلبي كثيرًا، فقد فقدت جدي وأمي في عُمر صغير. ولم أُرد أن أفقد أبي أيضًا.

رفض أبي إلحاحهم. عرض عليهم أن يختاروا خليفة غيره، ووعدهم أن يكون له مستشارًا ووزيرًا إن أراد. إلا أنهم قد أصروا عليه. فقد كانوا يرونه الأحق بالخلافة في هذا الوقت، خاصةً أنه كان مَن انحصرت الخلافة بينه وبين عثمان بعد مقتل عُمَر. خاف أبي أن يَترك منصب الخليفة شاغرًا، فيتقاتل الناس عليه أو يستولى عليه بعض الغوغاء، فاضطر لقبول هذا المنصب على مضض.

كان أبي وسطًا بين الجميع؛ فهو كان رافضًا لسياسات الولاة المتجاوزين، وفي الوقت نفسه كان رافضًا لعزل

الخليفة أو قتله. كما أنه لم يكن بينه وبين أي من الأطراف صراع شخصي. لذلك فقد كنت أظن أن الأمور ستهدأ بتولي أبي الخلافة إلا أن ظني كان في غير محله. ولم أكن أعلم أن الأسوأ لم يأتِ بعد.

عصير الكتب للنشر والتوزيع

عبد الله
(١)

نزلت من البيت سريعًا، فوجدت مازن - مساعدي - ينتظرني.

- ما الأمر يا مازن؟

- اركب معي السيارة يا أستاذ، وسأخبرك بكل شيء في الطريق.

ركبت السيارة، وانطلقنا بأقصى سرعة.

- ماذا فعل سمير في غيابي؟

- لقد استغل غيابك أسوأ استغلال. فأثار مجلس الإدارة ضدك. وأوعز إليهم أنك غير قادر على تحمّل المسئولية. ليس هذا فحسب، بل أخبرهم بما

حدث لحسن ابنك، وقال إن هذا دليل على فشلك في حياتك الخاصة، وبالتالي في إدارة الشركة. انقسم مجلس الإدارة: بعضهم يأخذ صفّنا، وبعضهم يأخذ صف سمير، والبعض رأى أن يتم تنحيتكما واختيار أحد الأشخاص غير المحسوبين على أي منكما. وبالطبع استغل منافسونا هذه الصراعات للترويج ضدنا بشكل غير مباشر. فتسبّب هذا في سحب عدد من عملائنا لأعمالهم منّا، ودفعها إلى شركات المنافسين. وأدَّى هذا إلى تأخير دفع الرواتب للموظفين. لم يُرضِ هذا عددًا كبيرًا من الموظفين فطلبوا عقد اجتماع مع مجلس إدارة الشركة إلا أن سمير تجاهل مطالبهم. فنظّموا مظاهرة أمام مقر الشركة، فقرر سمير أن يفصلهم من العمل مُدّعيًا أنهم عِمالة زائدة، والشركة ليست في حاجةٍ إليهم. وهؤلاء الموظفون معتصمون منذ الأمس أمام مقر الشركة.

- كيف يحدث كل هذا ولا تخبرني فورًا؟!

- عذرًا أستاذ عبد الله. لكنني أعرف أن لديك بعض الظروف العائلية الآن، كما أن هاتفك كان خارج

الخدمة لأكثر من يوم. وقد حاولت أن أقوم مقامك، وأوقفه عند حدّه. لكنه أخبرني أنني لا صفة لي في الشركة حتى أتّخذ قرارات. عندها قررت أن آتي إليك فورًا.

وصلنا إلى مقر الشركة في وقتٍ قياسي؛ فقد كنّا نطير فوق الطريق.

كانت أحوال الشركة بادية على واجهة مقرها. فالموظفون المفصولون يفترشون ساحتها والرصيف المواجه لها. وبالطبع فالزروع والأشجار الموجودة في الفناء مُهمَلة. وأمن الشركة موجود بكثافة. وتوجد سيارة للأمن المركزي أيضًا أمام الشركة. باختصار فوضى عارمة.

بمجرد أن رآني الموظفون، ركضوا نحوي. حاول الأمن منعهم بالقوة، لكنني طلبت منهم أن يتركوهم؛ فلا حاجة إلى مزيد من الاشتباكات والفوضى هنا. تعالت أصوات الموظفين:

- هل هذا جزاء عملنا في الشركة، يتم طردنا بهذا الشكل المهين؟!

- خدمنا الشركة لسنوات طويلة، هل هذه مكافأة نهاية الخدمة؟!

- لن نترك حقَّنا أبدًا.

- أستاذ عبد الله نحن نثق بك، فلا تخذلنا.

فكّرت أن أُخاطِب الموظفين، لكنني كنت مشوَّشًا للغاية، فخشيت أن أقول كلامًا يزيد غضبهم أو أعدهم بشيء لا أستطيع الوفاء به. وفي نفس الوقت خشيت إن لم أُخاطبهم أن يظنوا أنني أتكبَّر عليهم. فوقفت أمامهم لحظةً قائلًا: اطمئنوا، كل شيء سيكون على ما يُرام. وطلبت من مازن أن يُخاطبهم نيابة عني بينما أصعد لمقابلة سمير.

دخلت الشركة سريعًا وأنا أتجنّب النظر لأي موظف. كنت أشعر أنني خذلتهم. كنت مشحونًا للغاية بمشاعر مضطربة بين غضب وذهول وتحفّز. لست معتادًا على هذا الكم من المشاعر المتداخلة. لم أستخدم المصعد، بل صعدت السلالم سريعًا. لأجد نفسي وجهًا لوجه أمام الحاج عبد الحكيم.

- أهلًا حاج عبد الحكيم. كيف حالك؟

- أهلًا بك، أستاذ عبد الله. كيف حال ابنك الآن؟

- بخير الحمد لله. أين سمير؟

- في غرفة رئيس مجلس الإدارة.

ازداد غضبي. إذًا فهو قد نصّب نفسه رئيسًا لمجلس الإدارة من تلقاء نفسه. ذهبت إلى الغرفة. وقفت أمام الباب محاولًا تجهيز بعض الكلمات، حتى لا أبدو مترددًا أمامه، ويسخر مني. ثم أدرت مقبض الباب، ودخلت.

مصير الكتب للنشر والتوزيع

(٢)

- أستاذ عبد الله! لقد نسيت أنك معنا هنا في الشركة.

قالها سمير بنبرة ساخرة بمجرد أن رآني. كان جالسًا على كرسي رئيس مجلس الإدارة الفخم.

- ماذا تفعل هنا يا سمير؟

- أدير الشركة كما ترى.

- بل تخرّب الشركة كما أرى. العملاء يسحبون أعمالهم، والموظفون معتصمون أمام الشركة. هل هذه طريقتك في الإدارة؟!

- لقد خاطبت عددًا من العملاء، وأحاول الآن استخدام علاقاتي ليعيدوا أعمالهم للشركة. أما بخصوص الموظفين فهم جالسون في مكاتبهم.

- وماذا عن المعتصمين في الخارج؟!

- لم يعودوا موظفين لدينا. لقد تم الاستغناء عنهم. بل إنني صرفت تعويضًا مناسبًا لكلٍ منهم. أرأيت كم أنا حنون!

- وهل هذا التعويض البسيط سيعوّضهم عن سنوات عمرهم التي أفنوها هنا؟! هل سيعوّضهم عن انكسارهم أمام أنفسهم وأُسرهم جرّاء هذا الطرد المُهين؟!

- لم أعهدك عاطفيًّا هكذا يا عبد الله. لطالما كنت عقلانيًّا حازمًا، وكان يُعجبني هذا فيك رغم اختلافي معك. يبدو أن ما حدث لابنك قد غيّرك.

- نعم غيَّرني للأفضل. كم أتمنَّى أن تتغيَّر أنت أيضًا!

- حسنًا، فلندع المشاعر والتغيرات الآن جانبًا. نريد أن نصل إلى حلٍ، حتى لا تتداعى الأمور أكثر من هذا.

- قلت لك من قبل، لقد قضيت خمسة عشر عامًا هنا في الشركة، وبالتالي أنا الأقدر بإدارتها. كما أنني كنت ملازمًا لأبي، وبالتالي تعلّمت منه كل شيء.

- الشركة الآن تواجه ضائقة مالية، وهي بالتالي تحتاج إلى أموالي التي إذا قمت بضخّها فستتحسن الأحوال كثيرًا.

- ولماذا لا تقوم بضخّها إذًا؟

- وماذا يضمن لي حقي لو قمت بضخها وتم إنفاقها بشكلٍ لا يُرضيني؟

- سمير، أنت مدير الشئون المالية، وأنا مدير الشئون القانونية. والشركة بحاجة لنا معًا. ما رأيك أن أكون رئيسًا لمجلس الإدارة، وتكون أنت نائبًا لي؟

- ولماذا لا أتولى أنا رئاسة مجلس الإدارة بما إني سأضخّ أموالي في الشركة؟

- لقد مللت هذا الجدل العقيم. حسنًا، فلتذهب أنت وأموالك للجحيم! واعلم أني لن أتنازل عن حقي في هذه الشركة مهما حدث.

خرجت من الغرفة، وصفعت الباب خلفي. وأنا ألعن سمير الذي أفسد يومي.

وجدت مازن ينتظرني في الردهة. لم يكلّمني؛ فهو يعلمني عندما أكون غاضبًا. ذهبت معه إلى مكتبي؛ لتناقش في خطواتنا القادمة. قال لي:

- ما رأيك أن نرفع عليه دعوى قضائية؟

- بأي تهمة؟! هذا الثعبان يتحرك بشكل قانوني دائمًا. ثم إنني لا أرغب في مزيد من الفضائح. من قد يعمل معنا ثانيةً عندما يجد أعضاء مجلس الإدارة يُقاضون بعضهم بعضًا! الأمر يحتاج إلى الدهاء والحكمة. دعني أفكر قليلًا. وفي الوقت الحالي، أريد منك أن تعرف كل شيء عن أنصار سمير في مجلس الإدارة. فأنا لن أضرب سمير نفسه، بل سأضرب مَن حوله أولًا.

- حسنًا، سأبدأ في تنفيذ المهمة من الآن، أستاذ عبد الله. أستأذنك.

بعد أن خرج مازن، أعددت لنفسي فنجانًا من القهوة، حتى أستطيع التفكير.

يا له من موقفٍ عصيبٍ! إذا ضربت سمير بقوة فسيضربني هو أيضًا بقوة، وتنهار الشركة. وإذا تركته

فسيتحكّم فيها كيف يشاء. الأمر يحتاج إلى الحكمة. وأنا أحتاج إلى بعض الهدوء.

هدأت لحظةً ثم سألت نفسي: هل أنا فعلًا تغيّرت مثلما قال سمير! هل هذا التغيير واضح لهذه الدرجة؟! ماذا فعلت بي يا إمام! تُرى لو كان الإمام الحسن في موقفي هذا، ماذا كان سيفعل؟

جرَّني هذا السؤال لاستكمال قراءة سيرة الإمام، فقد جلبت الكتاب معي عندما نزلت من البيت مُسرعًا. صرت أحمله معي أينما ذهبت. فتحت الكتاب حيث توقَّفت. وواصلت القراءة.

عصير الكتب للنشر والتوزيع

الحسن بن علي
(١)

بمجرد أن تولى أبي الخلافة، تصاعدت الأصوات المطالبة بالقصاص من قتلة عثمان. وكان على رأسهم: الزبير بن العوام، وطلحة بن عبيد الله، ومعاوية بن أبي سفيان، والسيدة عائشة. كان أبي يشاركهم الرأي، ويعارضهم الكيفية. كان يعتزم القصاص من قتلة عثمان، لكنه كان يرى استحالة تنفيذ هذا في الظروف الحالية. فقد اختلط القتلة بالناس، ولم يكن هناك إمكانية لتمييزهم دون غيرهم.

والأهم من ذلك، أن حدود الدولة الإسلامية صارت في خطر داهم. فقد توقّفت حركة الفتوحات، وصار قادة

الجيوش في حيرة من أمرهم، فلا يمكنهم أن يتحركوا خطوةً دون أمر الخليفة. والخليفة الآن لا يقدر على القيام بمهامه بشكلٍ كامل. وأيضًا كان مصير الولاة غير معلوم، خاصة الولاة الذين شاركوا في هذه الفتنة. فلا بدَّ للخليفة أن يسيطر على الأمور أولًا، حتى يستطيع عزل هؤلاء الولاة ومحاسبتهم واستبدالهم بغيرهم، وحتى يتمكَّن أيضًا من إجراء تحقيقات واسعة للإمساك بالقتلة والقصاص منهم.

لكنَّ أحدًا لم يعذر أبي. لم يروا الأمر من الداخل كما يراه هو. فقط أرادوا القصاص، والقصاص الآن. والأكثر من ذلك، أن قميص عثمان المخضب بدمه وصل إلى دمشق، فثار الناس عندما رأوه، وطالبوا بالقصاص الفوري من القتلة. بدأ الأمر يخرج عن السيطرة في الشام. حاول أبي إفهامهم وجهة نظره عبر وسطاء، لكنَّ الناس فقدوا عقولهم. لم يكونوا مستعدين لسماع أي شيء. وكانوا يرون أن كلام أبي هو مجرّد تلكؤ منه لعدم تنفيذ القصاص.

لا أعلم كيف يفكرون هكذا! كيف يتهمون أبي بالتلكؤ أو الضعف أو عدم الرغبة في القصاص من قتلة عثمان؟! ألا يعلمون من هو علي بن أبي طالب! كيف يُتَّهم مثل علي بمثل هذه الافتراءات؟!

لم يرَ أبي بُدًّا من عزل معاوية من ولاية الشام، رغم أنه حاول تجنّب هذا كثيرًا. لكنَّ معاوية رفض تنفيذ الأمر، بل أعلن نفسه ولي دمي عثمان، ورفض بيعة أبي. خرجت الشام عن سيطرة أبي تمامًا. ولذلك وجد نفسه مضطرًا للخروج من المدينة والذهاب لتخوم الشام، حتى يكون قريبًا من موقع الأحداث. حاول بعض الصحابة الكرام إثناء أبي عن قراره، لكنه كان قد حزم أمره.

كم كان حزني كبيرًا وأنا أترك مدينة جدي! لم أكن أعلم أني سأعود إليها بعد ذلك، لكن بدون أبي. انطلقنا صوب الكوفة، لقربها من بلاد الشام. وعلمنا أيضًا بخروج السيدة عائشة وطلحة والزبير إلى البصرة، ليلتحموا مع بعض الجماعات المطالبة بدم عثمان.

كنت لا أرضى عن كثيرٍ مما يحدث، لكنني لم أكن لأخالف أبي الرأي أمام الناس. وكانت علاقتي بأبي علاقة أخوة على عكس ما كانت تسير عليه علاقات الآباء بأبنائهم من السيادة المطلقة للأب على ابنه إلى درجة تقارب درجة الاستعباد.

لذلك فقد تحيّنت فرصة؛ كي أنفرد به بعد صلاة الصبح. ودار بيننا حوارٌ مؤثّرٌ بين ابنٍ يخشى على أبيه من الأذى، وأب يسمح لابنه بأن يُعبّر عن رأيه بحرية.

قلت له:

- أمرتك فعصيتني، فغدًا تُقتَل ولا ناصر لك.
- وما الذي أمرته فعصيته؟
- أمرتك أن تخرج من المدينة حين أُحيط بعثمان، فيُقتَل ولست فيها. وأمرتك حين قُتِل ألا تُبايع إلا بعد أن تأتيك بيعة الأمصار. وأمرتك حين خرج طلحة والزبير أن تلزم بيتك حتى يصطلحوا، فإذا حدث الفساد حدث على يدي غيرك. فعصيتني في ذلك كله.

- أي بُني، أما قولك: لو خرجت من المدينة حين أُحيط بعثمان، فقد أُحيط بنا كما أُحيط به. وأما قولك: لا تبايع حتى تأتيك بيعة الأمصار، فإني خشيت أن يضيع أمر الخلافة. وأما قولك ألا أخرج حين خرج طلحة والزبير، فإن خروجهم هذا كان وهنًا على أهل الإسلام. وأما قولك: اجلس في بيتك، أتريدني أن أكون مثل الضبع التي يُحاط بها. وإذا لم أنظر فيما لزمني من أمر المسلمين، فمن ينظر فيه؟! فكف عني أي بني.

أسكتني قول أبي؛ فقد كان مدفوعًا إلى قلب الفتنة. كان كمَن يحاول أن يمنع عاصفةً آن أوانها. فهو لم يكن يريد الخلافة، ولم يكن يرضى عن القتال. لكنه أيضًا لم يكن ليقبل أن يقعد في بيته، ويترك المسلمين ينهش بعضهم بعضًا، خاصة بعد أن تولى الخلافة. لقد كان أبي دائمًا صاحب موقف.

وقد كان حريصًا حتى آخر لحظةٍ على الصلح؛ حقنًا لدماء المسلمين. وكان من الصحابة أيضًا من هو حريص على ذلك. فتوسّط عددٌ منهم في الصُلح بين فريق أبي،

وفريق طلحة والزبير. ونجحوا في مسعاهم فعلًا. واتفق قادة الفريقين على الصلح. إلا أن الغوغاء من الجيشين قد هجموا على بعضهم بعضًا في الليل، فاشتعلت الحرب.

كانت حربًا مروّعة. فهي أول حرب في الإسلام يكون طرفاها من المسلمين. ورغم انتصارنا فيها، فإننا لم نفرح بهذا النصر. فقد راح ضحيّتها الكثير من المسلمين. وعلى رأسهم اثنان من كبار صحابة جدي: طلحة بن عبيد الله والزبير بن العوام.

وقد كان أبي كعادته رحيمًا بالمسلمين، فبعد أن انهزم جيش أهل البصرة، وولوا فارين، أمر أبي جيشه ألا يتّبعوهم، وألا يُجهزوا على جريح، وألا يأخذوا من الغنائم إلا السلاح. وقام بتجهيز السيدة عائشة بالمؤن والحراسة، وردها معززة مكرمة إلى المدينة المنورة.

وقد رأيته يسير بين القتلى من الفريقين ويترحّم عليهم. ثم رأي أبي طلحة بين القتلى، فمسح التراب عن وجهه، وبكى قائلًا: عزيزٌ عليَّ يا أبا محمد أن أراك مُجندلًا في

التراب. ثم ضمني إلى صدره وقال: يا حسن، ليتني مت قبل هذا اليوم بعشرين سنة.

لأول مرة أجدني غيرَ سعيدٍ بنصرٍ شاركت فيه. فما المُفرح في كل هذا العبث؟!

عصير الكتب للنشر والتوزيع

(٢)

لم نكد نلتقط أنفسنا من حرب أهل البصرة إلا وقد وجدنا أنفسنا في مواجهة مع أهل الشام بقيادة معاوية بن أبي سفيان وعمرو بن العاص. بمجرد أن علم أبي بخروجهم، سار إليهم بجيش الكوفة. كانت سيوف كل فريق تقطر حدة على قتال الفريق الآخر. لم أكن أتصور أن يشتهي المسلم قتل أخيه بهذا الشكل. انطلق الفريقان بمنتهى القوة، ودارت بينهما الحرب الضروس.

كانت الكفّة متوازنة في البداية إلى أن حدث ما قلب كفة الحرب لصالحنا. فقد قُتِل عمّار بن ياسر على يد جيش الشام. عمَّار الذي كان مناصرًا لأبي منذ اللحظة الأولى، وحتى النهاية. عمّار الذي كان له دور كبير في شحذ همم أهل الكوفة لمناصرة أبي. عمّار الذي يعرف

جميع المسلمين أن جدي ﷺ قد قال له: «تقتلك الفئة الباغية».

جيش الشام قتل عمار ... جيش الشام قتل عمّار.

انتشر خبر مقتله انتشار النار في الهشيم. اضطرب جيش الشام. فقد أيقنوا أنهم الفئة الباغية هنا. وهجم جيشنا عليهم بقوةٍ حتى انتكسوا. صارت الغلبة لنا، وتيقّنا أن النصر حليفنا. لكن حدث ما لم يكن في الحسبان.

رفع جيش الشام المصاحف على أسنّة رماحهم. وهي علامة على رغبتهم في تحكيم كتاب الله. لم يكن لديَّ شك أن هذه مجرد خدعة منهم لكسب الوقت، ووقف القتال بعد انهزامهم. وكان هذا رأي أبي أيضًا، فأمر جنوده باستكمال الحرب. لكن جيشنا قد انقسم على نفسه، فمنهم من يرى رأينا، أن هذه مجرد خدعة، ويجب علينا إكمال الحرب. وفريق آخر يرى الاحتكام لكتاب الله. حتى كاد يحدث قتال بين الفريقين. فلم يجد أبي بُدًّا من إيقاف الحرب، وقبول التحكيم.

وبالطبع لأن التحكيم كان مجرّد خُدعة، فقد فشلت جميع المفاوضات. ولم تُسفِر إلا عن إطلاق سراح الأسرى من الفريقين، وعودة كل فريق إلى بلده. وهكذا لم يحل التحكيم الأزمة، بل فاقمها؛ فقد انشقت عن جيش أبي فئةٌ رافضة للتحكيم، بل إنهم خرجوا على أبي لقبوله إياه. حاول أبي بالطرق السلمية ردهم إلى صوابهم، فأرسل إليهم عبد الله بن العباس لمناظرتهم، فغلبهم ابن عباس بحجّته القوية، وعاد معه منهم ستة آلاف رجل إلى جيش أبي، وظل الباقون على عنادهم. بل إنهم بدأوا في الاعتداء على الناس ممن لا يرون رأيهم، فلم يجد أبي بُدًّا من محاربتهم؛ للقضاء على شرهم.

تقابل الجيشان في منطقة النهروان بالعراق، ولم نأخذ وقتًا طويلًا حتى ننتصر. وكالعادة كان أبي رحيمًا فأمر بعدم الإجهاز على جريح أو اتّباع هارب.

ثم عاد أبي بالجيش إلى الكوفة محاولًا تنظيم أمور الدولة. فقام بإنشاء جهاز للشرطة لحفظ الأمن، وإنشاء مراكز الخدمة العامة، وبناء السجون لوضع المحكوم

عليهم فيها. كما أمر أبا الأسود الدوؤلي بوضع قواعد النحو، حيث خاف على اللغة من الضياع نتيجة اختلاط العرب بباقي الأمم. وهكذا بدأ الهدوء يعود شيئًا فشيئًا للدولة الإسلامية. إلا أن الخوارج كان لهم رأي آخر.

فرغم أن أبي كان رحيمًا بهم؛ فإنهم لم يرحموه. فانقضّ عليه رجل منهم في أثناء خروجه لصلاة الفجر، وأصابه بضربةٍ قاتلةٍ.

أحضرنا الطبيب سريعًا إلى أبي. حاول إسعافه، ثم نظر إلى أبي وقال: «يا أمير المؤمنين، قل وصيتك فإنك ميّت». فجمعني أبي أنا وأخي الحُسَين وأخينا - غير الشقيق - مُحمد (المشهور بابن الحنفية)، وأوصانا وصيةً طويلةً جامعةً اشتملت على كل أمور الدين والدنيا.

ثم التفت إلى مُحمد، وقال له: «إني أوصيك بتوقير أخويك؛ لعظم حقهما عليك، فاتبع أمرهما، فلا تقطع أمرًا دونهما».

ثم التفت إليَّ وإلى الحُسَين قائلًا: «وإني أوصيكما به؛ فإنه ابن أبيكما، وقد علمتما أن أباكما كان يحبه».

وبعد أن أتم وصيته، ظل يردد «لا إله إلا الله» حتى فاضت روحه إلى خالقها.

عصير الكتب للنشر والتوزيع

فريدة

تركت الكتاب؛ فلم أعد قادرةً على قراءة المزيد. شعرت بغصةٍ في قلبي، ودموعٍ على خدي. هالني ما تعرَّض له الحَسَن وأبوه. في غضون سنواتٍ قليلة، تبدَّل الحال. وكل هذا بسبب بعض الجهلاء. لا أفهم حقًّا كيف يتَّهم البعض ابن عم رسول الله ﷺ، وزوج ابنته، وأول من أسلم من الفتيان بالكفر! بل يُهدر دمه أيضًا! لكن هكذا هم الجهلاء دائمًا.

لفت انتباهي ثقة الجهلاء الشديدة في أنفسهم؛ فهم يأخذون قراراتٍ فادحةٍ بثقةٍ غريبة. أهدروا دم عثمان وقتلوه. وأهدروا دم عليٍّ وقتلوه أيضًا. هكذا بمنتهى البساطة يقتلون اثنين من كبار صحابة الرسول.

وفي مقابل هذه الثقة العمياء، رأيت تريّث العلماء. فقد رفض عثمان أن يستقدم الجيش أو حامية المدينة لقتال الذين حاصروا داره. كما أن عليًّا قد وافق على التحكيم رغم تقدّمه في المعركة؛ حقنًا لدماء المسلمين.

ربما لأن العالِم يخشى أن يُخالِف أمر الله؛ فيسير على مهل. في حين أن الجاهل لا يعلم شيئًا من الأساس، فهو يتحرَّك وفق غريزته. يكره هذا فيقتله، ببساطة.

تعجّبت من نفسي؛ فلأول مرة أسأل نفسي هذه الأسئلة ذات الطابع الفلسفي. لأول مرة أتعمّق في التاريخ بهذا الشكل. أشعر أن رأسي يؤلمني من كثرة المشاعر المضطربة والتفكير. الآن فقط فهمت كيف غيّرت سيرة الحَسَن عبد الله. فالتاريخ ليس مجرد قصص للفخر أو التسلية، لكنه يضعنا في مواجهة مباشرة مع أنفسنا وأفكارنا. عندما قرأ عبد الله عن طفولة الحسن، وما لاقاه من عنايةٍ واهتمامٍ شعر بالتقصير في حق ابنه، فقرر أن يُغيّر من نفسه. وها أنا ذا أشعر كأني نضجت فجأة، ولم أعد تلك الفتاة التي تحب الروايات الرومانسية والاجتماعية فقط. لقد صرت الآن أمًّا لطفلٍ على أعتاب مرحلة المراهقة؛ طفلٍ

حاول قتل نفسه. لذلك يجب أن ينضج تفكيري، حتى أُصبح قادرةً على تربية رجل، لا طفل.

ذكَّرتني هذه الأفكار بحسن، سأذهب له في غرفته؛ لأطمئن عليه.

خرجت من غرفتي متوجِّهة نحو غرفة حسن. فتحت باب غرفته لأجد نفسي أمام مفاجأةٍ لم تكن في الحُسبان.

هرعت إلى غرفتي، أمسكت بهاتفي.

- عبد الله. عبد الله. احضر إلى البيت فورًا.

عصير الكتب للنشر والتوزيع

حسن

كانت هذه الأيام هي أجمل أيام حياتي؛ فقد كنت أنعم بحب واهتمام الجميع: أبي وأمي وجدتي وماما صفية. ورغم صمتي الدائم فإنني كنت أود أن أخبرهم كم أحبهم. لكن لا أعلم لماذا كلما هممت بذلك، انعقد لساني! ربما أخشى إن كلمتهم أن يركنوا إلى هذا، ويعودوا إلى أسلوبهم القديم معي من الإهمال والتعنيف. أخشى أن يكون كل هذا اهتمامًا لحظيًّا فقط.

لكنني كنت بحاجةٍ إلى البوح، حتى لا تختنق الكلمات والمشاعر في صدري. تأملت رزمة الأوراق التي تركها أبي، لم أكن مغرمًا بالقراءة كثيرًا. إلا أنني كنت أحب سماع القصص والحكايات من جدتي. لذلك فقد انتظرت للمساء، حتى تعود ماما صفية لمنزلها، وأكون حينها مع

جدتي بمفردنا. فقد كنت أتظاهر أمام الجميع بأني قد تجاوزت مرحلة الطفولة. إلا أن الطفل الذي بداخلي كان يرغب في مزيد من الحكايات والتدليل. ولم أكن أسمح لأحدٍ حاليًّا برؤية هذا الطفل إلا جدتي.

اشتقت لحكاياتها. لكنني قد مللت حكايات الشاطر حسن والأميرة، وعلاء الدين والبساط السحري، وبياض الثلج والأقزام السبعة. لأنني على أي حال لن أملك بساطًا سحريًّا، ولن أقابل الساحرة الشريرة. كنت أشتهي حكاياتٍ بإمكاني أن أكون بطلها حقًّا أو على الأقل أحاول أن أكون.

تذكَّرت ما قاله لي أبي من أن بطل كتابه يحمل نفس اسمي. حمّسني ذلك لسماع قصّته. وفي المساء، أعطيت رزمة الأوراق لجدتي، وطلبت منها أنها تقرأها لي بأسلوبها الممتع. لم أكن قد تكلمت مع أحدٍ بعد؛ فقد كنت مستمتعًا بشخصية الصامت الذي يحظى باهتمام الجميع. لكنني اليوم اشتقت للكلام، أي كلام.

لذلك فقد انتظرت حتى المساء، بعد أن دخلت جدتي في السرير بجانبي كما اعتادت أن تفعل كل ليلة منذ الليلة الحزينة. خلعت نظارتها، ووضعتها على الطاولة بجانبها. ثم قبَّلتني، وقالت لي:

- تصبح على خير يا حبيبي.

أخذت نفسًا عميقًا ثم قلت:

- جدتي، احكِ لي عن الحسن بن علي!

انتبهت جدتي فجأة، وانتفضت من السرير تنظر إليَّ غير مصدِّقة. سكتت لدقيقة ثم بدأت عيناها تذرف الدموع، واحتضنتني بعمق. وقالت:

- حسن. اشتقت لصوتك يا حبيبي. الحمد لله على السلامة. لقد استجاب الله أخيرًا لدعائي.

- وأنا أيضًا جدتي اشتقت للحديث واللعب معكِ. واشتقت لحكاياتك المسليّة.

- أيها الشقي، فعلت كل هذا، حتى تعلم مدى حبنا لك.

كنت أشتاق للاهتمام يا جدتي. آسف إن كنت قد أوجعت قلبك. يعلم الله كم كنت أخشى عليكِ وعلى عضلة قلبك.

- قلبي بخير الحمد لله طالما أنك بخير. يجب أن نخبر والديك. سيطيران من الفرحة.

- لا يا جدتي، رجاءً. لا تخبريهما الآن. أريد أن أخبرهما بنفسي، لكن ليس الآن.

- كما تحب يا حبيبي. لكن لا تُطل انتظارهما، حتى لا توجع قلبيهما.

- اطمئني يا جدتي. لكن الآن أرجوكِ. حدِّثيني عن الحسن بن علي!

- سأحدِّثك عنه يا بني. لكن في البداية أخبرني كيف عرفت الحسن؟

- لقد أعطاني أبي رزمة من الأوراق قال إنها مسودة لكتاب له، وإن بطل الكتاب له نفس اسمي. قرأت غلاف الكتاب فوجدت مكتوبًا عليه: الحسن بن علي. وقد أردت أن أعرف عنه بأسلوبك الشائق.

- أَحسنَ أبوك الاختيار. فولد في عمرك لا بدَّ أن يعرف سيرة سيد شباب الجنة.

قضت جدتي ليلتها تحدّثني عن الحسن بن علي في طفولته وشبابه حتى أذَّن الفجر. فصليناه حاضرًا ثم نمنا بعمق.

أعجبتني سيرة الحسن. وأعجبني أن له نفس اسمي. حتى إنني تخيّلت نفسي مكانه في بعض المواقف أو بجانبه. وقد كانت لديَّ عادة أفعلها عندما تحكي لي جدتي قصة وتعجبني. وقد قررت أن أطبّق عادتي هذه مع سيرة الحسن.

عبد الله
(١)

كنت قد قررت السهر في الشركة ذلك اليوم، حتى أعكف على قراءة سيرة الحسن، وأيضًا التفكير في خطواتي المقبلة لمواجهة سمير. لكن فجأة رنَّ جرس الهاتف في وقتٍ متأخرٍ. مَن قد يتصل الآن؟! أمسكت الهاتف فإذا هي فريدة تطلب مني أن أحضر للبيت فورًا. لم تعطني مزيدًا من التفاصيل. لا أعلم لماذا صار الجميع يطلب مني المجيء فورًا هذه الأيام!

وصلت البيت سريعًا، واندفعت من باب الشقة. وجدت فريدة في انتظاري.

– هل حسن بخير؟ هل حدث له شيء ما؟

– اطمئن حبيبي، هو بخير. لكنَّ هناك شيئًا أريدك أن تراه بنفسك.

ذهبنا سريعًا نحو غرفة حسن. فتحت الباب بترقّب وقلق. لم أكن مستعدًا للمزيد من المفاجآت غير السارة.

لكن الله كان رحيمًا بي؛ فقد كانت المفاجأة هذه المرة سارة ... سارة للغاية.

دخلت الغرفة ببطء، وأنا مندهش. وجدت جدران الغرفة مزيّنة برسومات حسن. شعرت كأنني في أحد المعارض الفنيَّة. كان قد وضع الرسومات على الحائط بنظامٍ مُتقَن. اقتربت من كل رسمة أتأملها. كانت رسوماته بسيطةً ومناسبة لسنّه الصغيرة، لكنها كانت جميلة.

كانت رسومات تاريخية. فهذه رسمة تصور أشخاصًا مجتمعين حول نار موقدة على الحطب. وهذه رسمة لفارسين يتبارزان بالسيف. وهذه رسمة لخيمة يجلس بداخلها عدد من الناس. ورسمة أخرى لمجموعة من الناس يسيرون في الصحراء.

نادتني فريدة وهي تشير لإحدى الرسومات.

- عبد الله. تعالَ تأمَّل هذه الرسمة!

نظرت إليها، فوجدت رسمة لطفلٍ في ملابس فارس، يُمسك في يده اليمنى سيفًا صغيرًا، ويركب على حصان. لاحظت أن حسن وضعها بحيث تتوسط باقي الرسومات. همست لي فريدة:

- ألا تُلاحظ أن هذا الفارس الصغير يُشبه حسن؟

تأملت وجه الفارس الصغير. نعم، لقد رسم حسن نفسه في هيئة فارس. كانت هذه عادته عندما تحكي له أمي إحدى الحكايات ويتأثر بها كثيرًا. أذكر أنه قد رسم نفسه قبل ذلك في هيئة الرجل الوطواط، ومرة أخرى في هيئة علاء الدين فوق بساطه السحري. تذكَّرت رزمة الأوراق التي أعطيتها له، يبدو أنه قرأها أو ربما جعل أمي تحكيها له، وتأثر بشخصية الحسن بن علي.

همست لفريدة:

- لقد أعطتني هذه المفاجأة فكرة رائعة جدًّا.

قالت لي مازحة:

- وما فكرتك، سيِّد أينشتاين؟

ضحكت قائلًا:

- دعيها تختمر الآن في رأسي ثم سأخبرك بها لاحقًا.

كان حسن وأمي يجلسان في سريره يراقباننا بهدوء.

ذهبت لأحتضن حسن، فوجدت فريدة قد سبقتني إليه، فاحتضنتهما سويًّا بقوة حتى خفت أن أكسرهما. يا له من شعورٍ رائعٍ لا تصفه الكلمات! همست لهما:

- أحبكما أيها الصغيران.

فهمس حسن:

- وأنا أحبكما جدًّا.

فقدت عقلي. وقلت كالمجنون:

- حسن! أخيرًا سمعت صوتك يا حبيبي.

اعتصرته بقوةٍ في حضني حتى تأوه من شدة عناقي له. سحبته فريدة من حضني، وعانقته بشدة، وهي تبكي، وتغرقه بالقبلات.

التفتُّ إلى أمي. قبَّلت يديها واحتضنتها. وهمست لها:

- كل هذا بفضل دعائك وتعبك يا أمي.

فهمست لي:

- بل هو بفضل الله يا بنيَّ. ها هو الله قد جمع لك أهلك فلا تفرِّط فيهم.

قلت لهم فجأةً:

- لقد فتحت هذه الأجواء الشاعرية شهيّتي. ما رأيكم أن نخرج الآن لنأكل في أحد المطاعم ونحتفل؟

قالت لي فريدة:

- وعملك؟

- ليس لدي عمل اليوم إلا أنتم. هيَّا نخرج.

كانت ليلة مليئة بالمشاعر الفيَّاضة. كم كنت غبيًّا حين أهملت أسرتي! فأي مجنون قد يُفرِّط في هذا الدفء الحاني!

عدنا إلى البيت في وقتٍ متأخرٍ من الليل. بعد أن اطمأننت على حسن وأمي. وقفت مع فريدة في ردهة الشقة قائلًا لها بدلال: هل ستتركيني أنام الليلة في غرفة الضيوف؟

ضحكت بخجل قائلة:

- لا، بل في غرفتنا.

نسيت كل شيء له علاقة بالعمل أو سمير. وقضيت ليلتي فقط مع حبيبتي فريدة.

عصير الكتب للنشر والتوزيع

(٢)

- هيَّا يا عبد الله. استيقظ! ستتأخر عن عملك. لقد صارت السابعة صباحًا.

- لن أذهب للعمل اليوم. لا أريد أن أرى وجه سمير ومَن معه.

- استيقظ أيها الكسول. كيف تريد أن تكون مديرًا للشركة، وأنت لا تستطيع النهوض من السرير!

قمت من السرير متثاقلًا. لقد عشت بالأمس أجمل ليلة في حياتي، ولا أريد أن أفسدها اليوم بمشاجرات العمل السخيفة. لكن على أي حال يجب أن أقوم. ليس من الحكمة أن أُصلِح بيتي وأُفسِد عملي.

ارتديت ثيابي، وخرجت من غرفتي لأجد نفسي أمام أجمل منظر أحب أن أراه. أسرتي بالكامل مجتمعة على

مائدة الطعام تنتظرني حتى نفطر سويًّا. هذا المنظر يساوي عندي الدنيا وما فيها. جلست معهم، وتناولت أجمل إفطار في حياتي. كانت الممرضة صفية قد جاءت مبكرًا، وجلست تتناول الإفطار معنا. قلت لها:

- لا أعرف كيف أشكرك على مجهودك طوال الأيام الماضية مع حسن.

- لا داعي للشكر يا أستاذ عبد الله. هذا واجبي، وأنا أعتبر حسن مثل ابني. هذا طبعًا بعد إذن مدام فريدة.

ضحكت فريدة، وضحكنا جميعًا. ثم أكملت صفية:

- أظن أنني بهذا قد أتممت دوري مع حسن. وبدايةً من الغد سأعود إلى عيادة الدكتور وائل.

- لكننا نسعد بكِ، ونعتبرك فردًا من أسرتنا الصغيرة.

- وأنا أيضًا أعتبركم أسرتي، لكن الدكتور وائل يحتاجني معه. وبالطبع سأكون على اتصال دائم بكم، وببطلي الصغير حسن.

أنهيت فطوري ثم ودَّعتهم. اصطحبتني فريدة حتى باب الشقة، وقالت لي:

- أفكِّر أن أذهب اليوم مع حسن إلى النادي، كي يشترك في ورشة الرسم. ما رأيك؟

- فكرة رائعة. كنت سأقترحها عليكِ بالأمس، لكن نسيت.

- حسنًا. وأنت انتبه لعملك جيدًا. ولا تجعل سمير أو ألف سمير يُعكّرون صفوك. نحن نحتاج إليك.

- اطمئني حبيبتي. سيكون كل شيء بخير إن شاء الله.

قبّلت جبهتها. ثم أسرعت إلى سيارتي. انطلقت بها حتى وصلت إلى مقر الشركة.

دخلت مكتبي سريعًا. كان مازن ينتظرني كما طلبت منه.

- أخبرني يا مازن، هل علمت أنصار سمير؟

- عرفت بعضهم. أخطرهم هو الأستاذ إبراهيم العضو المنتدب. وهو الذي أصدر قرار طرد الموظفين بإيعاز من سمير. وعرفت أيضًا أن سمير وعده بتولي منصب نائب رئيس مجلس الإدارة، ومكافأة مالية كبيرة طبعًا.

- حسنًا. هو رأس الحربة إذًا الذي يستند إليه سمير. يجب أن نتخلَّص منه، لكن بذكاء. يجب أن نثير الموظفين الحاليين ضده، حتى يعلموا أنه قد يفعل بهم مثلما فعل بالآخرين. وبالتالي يثورون ضده. وبالطبع لن يستطيع هو وسمير أن يطردوا جميع الموظفين. لكن هذا الموضوع لا بدَّ أن يتم بمنتهى الحذر يا مازن. هل تفهمني؟

- بالتأكيد، أستاذ عبد الله. اطمئن.

- أنا أثق بقدراتك. تولّى أنت هذا الأمر. وأنا سأقوم بمراجعة جميع ملفات إدارتنا، حتى أؤدي الأعمال التي تعطّلت نتيجة غيابي الفترة الماضية.

قضيت باقي النهار أتابع أعمال إدارتي. وعقلي لا يتوقّف عن التفكير في صراعي مع سمير. لا أعلم ما نهاية هذا الصراع. كما أنني لا أريد أن أنغمس فيه كالسابق، حتى لا تفسد علاقتي مع أسرتي ثانيةً. شعرت كأن هناك شخصين يتصارعان بداخلي: أحدهما يدفعني لإكمال الصراع لنهايته، والآخر يتساءل: ما جدوى كل هذا؟!

اشتقت للإمام الحسن، فقد انشغلت خلال اليومين الماضيين بأمور الأسرة والعمل عن سيرته. لذلك فقد قررت أن أترك العمل قليلًا، وأواصل قراءة سيرته.

عصير الكتب للنشر والتوزيع

الحسن بن علي

بعد أن أتممنا دفن أبي، أقبل أهل الكوفة وقادة الجيش يبايعونني. ومن قد يقبل بالخلافة في مثل هذه الظروف! قُتِل آخرُ خليفتين بأيدٍ مسلمة. والأمة منقسمة على نفسها. وحركة الفتوحات متوقفة. كان بإمكاني الرفض والاعتزال. لكنني كنت كأبي، لم أكن لأترك المسلمين ينهش بعضهم بعضًا دون أن أُحرِّك ساكنًا. وقد أيقنت أن الفتنة ستشتعل أكثر لو لم أوافق على الخلافة، لأن هذا سيُغري ضعاف النفوس بالسعي إليها.

أيقنت أن هذه هي اللحظة التي خُلِقت من أجلها. لقد كنت غير راضٍ عن كثيرٍ مما يحدث، لكن لم يكن لي من الأمر شيء. ها هو ذا الأمر قد جاء إليَّ دون أن أطلبه.

لكن الأمر لا بدَّ أن يتم بذكاءٍ. فهذه الجموع الهادرة باسمي حاليًّا لو علموا ما في نفسي من رغبةٍ في الصلح لانقضوا عليَّ وقتلوني كما فعلوا مع أبي عندما خالفهم في أمر التحكيم. لذلك فقد قررت أن أقبل بيعتهم، لكن بشروطي. أمرت بجمع الجيش والناس، ثم وقفت فيهم خطيبًا:

– يا أيها الناس، تُبايعونني على كتاب الله، وسنة رسوله (صلى الله عليه وسلم)؟

صاح الناس:

– نبايعك.

سكتُّ لحظةً ثم أضفت:

– وأن تُسالموا من سالمت، وتُحاربوا من حاربت؟

هدأ الناس عندما سمعوا الجملة الأخيرة، يبدو أنهم قد فهموا مرادي. لكنَّ أحدًا لم يعترض على كلامي في حينها، أو يحاول الثورة ضدي. ربما ألجمتهم المفاجأة. ربما توقّعوا أن يُثيرني مقتل أبي، ويدفعني للقتال. لكن

عصير الكتب للنشر والتوزيع

على أي حال، فقد بايعوا، وإن كنت أشعر بالحنق في وجوههم.

ولم يكد يمر وقت طويل حتى تأكدت من شعوري. فبعد ذلك بأيام قليل، بينما أنا أصلي، إذ وثب عليَّ رجل، وطعنني. لكن الطعنة وقعت في وركي، فلم تقتلني.

تيقّنت حينها أني محق في رأيي بالصلح؛ فهل مثل هؤلاء يُعوّل عليهم؟! هؤلاء الذين خرجوا على أبي وحاربوه وقتلوه. وها هم الآن يحاولون قتلي. كيف أثق بهم؟!

مكثت فترةً لا أقوى على السير ثم شفاني الله. فقمت في الناس خطيبًا:

يا أهل العراق، اتقوا الله فينا فإنا أمراؤكم وضيوفكم، أهل البيت الذين قال الله فيهم: ﴿إِنَّمَا يُرِيدُ اللهُ لِيُذْهِبَ عَنْكُمُ الرِّجْسَ أَهْلَ الْبَيْتِ وَيُطَهِّرَكُمْ تَطْهِيرًا﴾.

فما زلت أكررها حتى بكى كل من في المسجد.

ثم رأيت أن أوافق أهل العراق في أمرهم شيئًا قليلًا، حتى يكفّوا عن إيذائي. فقد ألحوا عليَّ بالمسير إلى أهل

الشام منذ أول يوم. فقررت أن أوافقهم، وأسير إليهم. وجعلت في المقدمة أقوى فِرق جيشي (شرطة الخميس)، حتى يستشعر الجميع أنني أوافقهم الرأي في الحرب. ولكن لم يكن في نيّتي القتال، بل الصلح. لكنني كنت أتحيَّن الفرصة. وكنت أيضًا أرغب في معرفة نيّة معاوية.

ولم يكد الجيش يأخذ أماكنه حتى ظهرت رايات جيش الشام في الأفق. وحدث تبادل للرسل بيني وبين معاوية في الخفاء، دون أن يعلم الجيشان بالأمر. وقد لمست في معاوية رغبة في الصلح على أن يتولى الخلافة. كنت أوافقه على الصلح، لكنني أشترط شروطًا للموافقة على تسليم أمر الخلافة له. وقد استجاب معاوية لهذه الشروط، وبعث كلٍ منا رجلًا ليقوم بكتابة كتاب الصلح كما اتفقنا. لكن تبقَّت الخطوة الأهم، ألا وهي إعلان الأمر للناس. وقد قررت أن أُمهِّد الأمر للناس، ولا أذكره لهم مباشرةً.

فأمرت بجمع أهل العراق، وقمت فيهم خطيبًا:

إني أرجو أن أكون أنصح خلف لخلفه، وما أنا محتمل عَلَى أحد ضغينة وَلا حقدًا، ولا مريد بِهِ غائلة وَلا سوءًا،

ألا وإن مَا تكرهون فِي الجماعة خير لكم مما تحبون فِي الفرقة، ألا وإني ناظر لكم خيرًا من نظركم لأنفسكم، فلا تخالفوا أمري ولا تردوا عليَّ، غفر الله لي ولكم ...

ولم أكد أكمل جملتي حتى هجم عليَّ عدد منهم، فشقّوا ردائي، وسحبوا مصلاي من تحتي، وخلعوا خيمتي. فتجمَّع حولي عدد من أنصاري، فأبعدوهم عني، وأتوا ببغلتي وأركبوني عليها، حتى أبتعد عن الأذى. فلم أكد أبتعد بها قليلًا حتى ضرب البغلة رجل بالمعول فأسقطني أرضًا. ثم ضربني به في فخذي وهو يقول: «أشركت يا حسن كما أشرك أبوك». ثم انقض عليَّ على الأرض وتصارعنا. حتى جاء بعض أنصاري، فسحبوا المعول من يده وقتلوه.

بعد هذه الحادثة، أردت إنهاء هذا الأمر بأسرع وقت. فطلبت الطبيب سريعًا، حتى يُعالج جرحي. وبمجرد أن برئت، جمعت قادة جيشي، وكبار أهل العراق، وقلت لهم: «يا أهل العراق، لو لم تَذْهَلْ نفسي عنكم إلا لثلاثة أمور لَذَهَلْتُ: مقتلكم أبي، ومطعنكم بغلتي، وانتهابكم

ردائي عن عاتقي. وإنكم قد بايعتموني أن تسالموا من سالمت وتحاربوا من حاربت وإني قد بايعت معاوية فاسمعوا له وأطيعوا». ثم تركتهم ودخلت خيمتي.

ثم اجتمعنا أنا ومعاوية في مكان بين الشام والعراق، واجتمع لدينا كبار أهل الشام والعراق، لقراءة كتاب الصلح أمام الناس، ومبايعته.

فقام كاتب الصالح ليتلوه على الناس قائلًا:

أيها الناس، هذا ما صالح عليه الحسنُ بنُ علي معاويةَ بن أبي سفيان، صالحه على:

* **أَن يسلم إِلَيْهِ ولَايَة الْمُسلمين على أَن يعْمل فيهم بِكِتَاب الله تَعَالَى وَسنة رَسُول الله (صلى الله عَلَيْهِ وَسلم) وسيرة الْخُلَفَاء الرَّاشِدين المهديين.**
* **وَلَيْسَ لمعاوية بن أبي سُفْيَان أَن يعْهَد إِلَى أحد من بعده بالخلافة، بل يكون الْأَمر من بعده شُورَى بَين الْمُسلمين.**

* **وعَلى أَن النَّاس آمنون حَيْثُ كَانُوا من أَرض الله (تَعَالَى) فِي شامهم وعراقهم وحجازهم ويمنهم.**

* **وعَلى أَن أَصْحَاب عَليّ وشيعته آمنون على أنفسهم وَأَمْوَالهمْ وَنِسَائِهِمْ وَأَوْلَادهمْ حَيْثُ كَانُوا.**

ثم قمت في الناس خطيبًا، وقلت لهم: «أيها الناس، إني كنت أكره الناس لأول هذه الفتنة، وهو القتال. وأنا أصلحت آخرها بالصُلح والتنازل عن الخلافة لذي حق أديت إليه حقه، أو حق لي جُدت به لصلاح أمة محمد. وإن الله قد ولاك يا معاوية هذا الأمر لخير يعلمه عندك أو لشر يعلمه فيك. ﴿**وَإِنْ أَدْرِي لَعَلَّهُ فِتْنَةٌ لَكُمْ وَمَتَاعٌ إِلى حِينٍ**﴾.

ثم بايعت، وبايع الناس. منهم الكاره للصلح ومنهم المُستحسن له، لكن الكل بايع.

وبعد إتمام الصلح، عدت إلى الكوفة، فقابلني رجل من أنصاري، فقال لي: «السلام عليك يا مذل المؤمنين».

فقلت له: «لا تقل ذلك، لم أذل المؤمنين. ولكني كرهت أن أقتلهم في طَلَب المُلك».

وجدت أنه لا مُقام لي في العراق في ظل حالة الاحتقان التي تسود بين أهل العراق تجاهي بعد الصُلح، كما أنني قد اشتقت لمدينة جدي (صلى الله عليه وسلم). فأخذت أهلي ومن جاء معي، ورجعت إلى المدينة.

عصير الكتب للنشر والتوزيع

عبد الله
(١)

هززت رأسي يمينًا ويسارًا، وأنا أقرأ هذا الجزء. شعرت باضطراب شديد، وأنا أقرأ هذه التفاصيل الصعبة التي تعرَّض لها الإمام الحسن. كنت قد قرأت سابقًا عن الصُلح بين الحسن ومعاوية، لكنني لم أنغمس في كل هذه التفاصيل. كان جزء منّي يتفق مع الإمام الحسن في صلحه، وجزء آخر يرى أنه كان بإمكانه أن يُدير الأمر بدهاء وحزم أكثر من هذا، ويحتفظ لنفسه بحق الخلافة. شعرت كأن هناك صوتين يتصارعان بداخلي.

استولى هذا التفكير على ذهني. والأكثر من هذا أنه جرَّني للتفكير في الصراع بيني وبين سمير، رغم أنني

بالأساس قرأت سيرة الإمام، حتى أُريح عقلي قليلًا من التفكير في هذا الصراع.

جال في رأسي خاطر: هل يمكن أن أُصالح سمير كما صالح الحسن معاوية؟!

هززت رأسي بقوةٍ كأنني أُزيل هذه الفكرة عنّي؛ فرئاسة مجلس إدارة الشركة حقي، ولن أتنازل عنها مهما حدث.

لكن عاد الصوت الآخر يقول: وإلى متى يستمر هذا الصراع؟! وماذا ستكون نتيجته؟! لقد كدت تفقد ابنك في لحظة، وكنت ستخسر معه كل شيء: زوجتك، وبيتك، وربما أمك أيضًا.

اشتد الصراع بداخلي.

كان الإمام الحسن يتصارع مع مَن حوله في أمر الصلح، أما أنا فالصراع يدور بداخلي.

إلى أين تأخذني سيرتك يا إمام؟!

هل هذا ما كنت تقصده حين أخبرتني أن التاريخ لا يُقرأ لكن يُعاش. بدأت أشعر أنني أعيش سيرة الإمام فعلًا.

أشعر أنها تتغلغل في حياتي. فقد غيَّرت علاقتي بابني، وها هي تجعلني للمرة الأولى أُفكِّر في الصلح مع سمير.

شعرت أن رأسي ثقيل، فأغلقت الكتاب، ووضعت رأسي على المكتب، فربما أحصل على قليلٍ من الراحة.

عصير الكتب للنشر والتوزيع

(٢)

فتحت عيني لأجد نفسي مُلقى وسط صحراء قاحلة. شعرت أنني قد عشت هذه اللحظة من قبل. بدأت أتحسس جسدي الذي يؤلمني كثيرًا. لا أعلم لماذا دائمًا ما أستيقظ لأجد نفسي وسط الصحراء. ألا يمكن أن أستيقظ لأجد نفسي في حديقة جميلة أو على شاطئ البحر مثلًا!

سمعت أصوات صراخ تأتي من خلفي. التفتُّ سريعًا لأجد خيامًا مشتعلة، ورجلًا يصرخ: الفرس يهجمون علينا.

فجأة اندفعت فرق من الفرسان والمشاة نحو الخيام، وعاثت فيها قتلًا وحرقًا وتشريدًا. لم أفهم في أي زمن نحن، ومن هؤلاء الذين هجم عليهم الفرس.

فجأة صرخ رجل من أهل الخيام: **الله أكبر**.

حسنًا إذًا، هم مسلمون. أهل الخيام مسلمون. هل نحن في خلافة عُمر بن الخطاب، وهذه معركة القادسية مثلًا؟

حاولت أن أسأل أحد الرجال عمَّا يحدث، لكن الأمر كان يبدو كما لو أنهم لا يروننني. لا أحد ينظر إليَّ. لا أحد يحاول حتى الهجوم عليَّ أو قتلي. شعرت كأنني أشاهد فيلمًا سينمائيًّا من الداخل.

لمحت رجلين من أهل الخيام يختبآن خلف جبل، فذهبت لأختبئ معهما. لا أعلم مم أتخفَّى! فلا أحد يراني على أي حال.

قال أحدهما: سامح الله الحسن ومعاوية، استمرا في حربهما لأربع سنوات حتى ضعفت جيوش المسلمين، وقُتِل الكثير من فرسان وأبطال الإسلام والصحابة في حروبهما الضروس، وأهملا حدود الدولة الإسلامية. وهذه هي النتيجة. لقد استجمع بقايا الفرس والروم قواهم، وهجموا علينا من الشرق والغرب.

فردَّ عليه الآخر: لقد جمع الروم أسطولًا كبيرًا في بحر الروم، وهجموا بضراوة على بلاد إفريقية ومصر والشام. كانت مذبحة مروِّعة. وها هم الفرس قد جمعوا شتاتهم، وهجموا علينا، لينتقموا منا.

فقال له الأول: ها هم الروم قد حاصروا معاوية في الشام، والفرس يحاصرون الحسن في العراق. فماذا جنى الإسلام من صراعهما! وماذا جنى كل منهما من قتاله على الخلافة! لقد انهار كل شيء. لله الأمر من قبل ومن بعد.

ذهلت من هول ما سمعت. هل انهارت دولة الإسلام حقًّا؟! هل ضاع كل شيء؟!

وجدت نفسي أنطلق راكضًا في الصحراء الجرداء. لا أعلم إلى أين أذهب. لكنني أريد الابتعاد عن هذا المكان المليء بالدماء والحرائق والأشلاء.

وقفت تائهًا في الصحراء، لا أدري إلى أين أذهب.

ما الذي رأيته؟

جاء هذا الصوت من خلفي فجأةً. انتفضت من مكاني، وسقطت على الأرض من هول المفاجأة.

التفتَّ خلفي، لأجده واقفًا أمامي بهيئته الوقورة كما رأيته أول مرة.

- هذا أنت يا إمام! لقد أفزعتني.
- عذرًا يا بني. هل أنت بخيرٍ الآن؟
- لا أدري. لكن أخبرني يا إمام. ما هذه الخيام التي تحترق؟ وكيف عاد الفرس مرةً أخرى؟ وكيف ...
- على رسلك يا بني. ما الذي رأيته؟
- رأيت الفرس يهجمون على معسكر المسلمين. وعلمت أن الروم قد هجموا على إفريقية ومصر والشام، بسبب صراعك مع معاوية لمدة أربع سنوات. هل حدث هذا حقًّا؟ ألم ينتهِ الأمر بينكما بالصلح؟
- أخبرني أولًا. هل قرأت عن هذا الصراع؟
- نعم.

- وما رأيك، كيف يُمكن أن ينتهي من وجهة نظرك؟
- أرى أنك صاحب الحق، ويجب أن تتمسك به، لأن تنازلك عن حقك سيعطي رسالة سلبية للناس أن الحق لا ينتصر.
- ألست تؤمن أن محمدًا هو رسول الله حقًّا؟
- بالتأكيد يا إمام. وهل في ذلك شك؟!
- ألا تعلم أن جدي ﷺ قد صالح المشركين في عام الحديبية؟
- بلى، أعلم.
- هل تعلم أنه كتب في بداية الصلح «هذا ما صالح عليه محمد رسول الله»، لكن المشركين قد طلبوا منه أن يحذف رسول الله، ويكتب «محمد بن عبد الله» فوافقهم على هذا؟ إذًا فقد تنازل جدي عن حقه في كتابة «رسول الله»، أليس كذلك؟
- بلى.
- فما رأيك في هذا؟
- ربما هو وافقهم على ذلك، حتى يتم الصلح.

عصير الكتب للنشر والتوزيع

- بالفعل. لقد تنازل عن حقه في كتابة «رسول الله» من أجل ما هو أهم ألا وهو إتمام الصلح الذي كانت نتائجه عظيمة للمسلمين، حتى إن الله قد قال فيه ﴿**إِنَّا فَتَحْنَا لَكَ فَتْحًا مُّبِينًا**﴾. فقد تنازل الرسول عن حقه في سبيل مصلحة المسلمين. وقد فعل ذلك مع المشركين، أفلا أفعله أنا مع المسلمين؟!

- صدقت يا إمام. لم أنتبه لهذا من قبل. لكن هل هذا معناه أن الحق دائمًا يتنازل؟!

- بالطبع لا. لا تظن أن تنازلي عن الخلافة جاء لضعفٍ منِّي. لقد كانت رؤوس العرب بيدي، يسالمون من سالمت، ويحاربون من حاربت. وكان معي من الدهاة مَن تزول من مكرهم الجبال. لكنني ما كنت لأريق دماء المسلمين، وأمكر بهم في سبيل المُلك. لقد وجدت نفسي محصورًا بين حقي، ومصلحة المسلمين، فاخترت مصلحة المسلمين. ولا تغفل أنني قد أمليت عليه شروطي في الصلح، فقد تنازلت من موقع قوة. هذه هي الدنيا يا بُني، مجموعة من الاختيارات الصعبة، ولا بدَّ أن تختار بينها. فلا تجعل نظرتك للأمور ضيقة، وانظر

للمصلحة العامة. وإياك وإضاعة حقوق الناس في سبيل تحصيل حقك؛ فإن حقوق الناس ثقيلة، وإنك لن تقدر على حملها في الآخرة.

- وماذا فعلت بعد الصلح يا إمام؟

- لقد كنت كبير آل علي بن أبي طالب، وبني هاشم. وقد ترك لي أبي إخوةً صغارًا بحاجةٍ إلى الرعاية. وأنا أيضًا كان لي أطفال صغار. لذلك فقد أخذت أهلي، وعدت بهم إلى المدينة لأرعى شئونهم، وأعتني بأطفالهم، وأقيم الحق بينهم، وأعلمهم أمور دينهم، حتى يكونوا أهلًا لهذا الدين. أحيانًا يا بنيّ تحتاج إلى طي صفحة الماضي، وبدء صفحة جديدة.

فريدة

كنت أجلس في النادي أنتظر حسن حتى يُنهي ورشة الرسم التي عاد لاستئنافها مرةً أخرى بعد اتفاقي مع عبد الله. كان الجو منعشًا، وهو ما ساعدني على التفكير في كل شيء حدث خلال الفترة الماضية: خلافاتي مع عبد الله، صراعه مع سمير، حادثة حسن، سيرة الإمام الحسن. لقد كان التغيير الذي حدث لنا خلال الفترة الماضية جذريًّا وعنيفًا أيضًا إلا أنه كان فعالًا. تذكرت مقولة أمي «لا أحد يتعلم مجانًا».

فكَّرت أيضًا في عملي الذي انقطعت عنه منذ حادثة حسن. لقد بدأت عملي هذا بالأساس، كي أبحث عن ذاتي، وأحقق طموحاتي. رغم أنه عمل شاق، ويشغل أكثر وقتي فإن راتبه كبير، وأيضًا لي فيه مستقبل مُبشِّر. كنت

مقتنعةً به بشدة في البداية، لكن الآن تزعزعت قناعتي. كأنني فقدت شغفي به، خاصة بعد أن كدت أفقد ابني بسبب انشغالي به. أشعر أنني أحتاج إلى بدايةٍ جديدةٍ.

- هل بإمكاني الجلوس معكِ، سيدتي؟

قطع أفكاري هذا الصوت المألوف. نظرت خلفي فإذا هو عبد الله. تفاجأت بوجوده؛ فليس معتادًا أن يأتي إلى هنا، وفي هذا التوقيت أيضًا. قلت له مازحةً:

- هل أعرفك، سيدي؟

- فلنعتبرها فرصةً للتعارف الجاد.

- صرت عاطفيًّا هذه الأيام على غير المعتاد.

- ربما أحاول أن أعوّضكِ عن الماضي.

- وما هذه المفاجأة السعيدة! لم تخبرني أنك ستأتي.

أنجزت أعمالي ثم غفوت قليلًا في المكتب. وفكَّرت أن آتي إلى هنا.

- أشعر أنك مشوش. هل ما زال الصراع قائمًا بينك وبين سمير؟

أومأ برأسه، ثم قال:

- أشعر أنني في مفترق طرق. ولا أعلم أي طريق أختار.

- اسمعني جيدًا. لا أعلم كثيرًا عن تفاصيل عملك. ولا أعلم كيف يُمكن أن ينتهي هذا الصراع. لكن تأكد أني سأكون معك أيًّا كان الطريق الذي ستسلكه.

نظرت إلى وجهه، فرأيته مضطربًا بشدة. مددت يدي، ووضعتها على يده، وابتسمت. فابتسم هو الآخر ابتسامةً لم تُخفِ اضطرابه، وربَّت على يدي كأنه يُطمئنني أن كل شيء بخير. شعرت أنه بحاجةٍ إلى بعض الهدوء، لذلك لم أُكثر معه الكلام. كم أتمنى أن ينتهي صراعه مع سمير بأي شكلٍ، لأني لا أريد أن أخسره خاصةً بعد هذا التغيير الإيجابي الذي حدث له.

بعد ساعة، جاء حسن. تفاجأ من وجود أبيه، لذلك احتضنه بشدة. ثم عرض علينا رسوماته.

- ما رأيكما في رسوماتي؟

- رائعة يا حبيبي. لقد صرت ترسم رسوماتٍ تاريخيةً كثيرًا في الفترة الأخيرة.

- نعم، منذ أن أخبرني أبي وجدتي عن الحسن بن علي. أريد أيضًا أن أتدرب على ركوب الخيل. سيكون أمرًا رائعًا أن أمتطي فرسًا، وأقفز به من فوق الحواجز.

شعرت بقشعريرة تسري في جسدي من كلمات حسن. يبدو أن تأثير الحسن بن علي قد وصل إلى حسن أيضًا. فقلت له:

- سنفكر في هذا الأمر. ما رأيك أن نتناول الغداء الآن معًا ثم نذهب للبيت؟

عصير الكتب للنشر والتوزيع

عبد الله

كنت أجلس مع مازن في مكتبي بالشركة، حتى يُطلعني على آخر أخبار سمير ورجاله كما طلبت منه سابقًا.

- لقد بدأت بالفعل في إشعال الموظفين ضد العضو المنتدب كما طلبت مني يا أستاذ عبد الله، وبدأت حالة من التذمُّر ضده. وقريبًا سنراه مطرودًا من الشركة.

- وماذا بعد العضو المنتدب؟

- عفوًا يا أستاذ، لم أفهم قصدك. ماذا بعده؟!

- أقصد ما الخطوة التالية؟

- سنقوم باستهداف جميع الأفراد الموالين لسمير حتى نتخلص منهم الواحد تلو الآخر ثم نُجهِز على سمير في النهاية.

- وكم سيستمر هذا الأمر؟

- لا أدري. لكنه لن يكون أمرًا بسيطًا بالطبع. ولا تنسَ أيضًا أن سمير هو الآخر يتحرك ضدنا، وهو ما سيطيل عمر الصراع.

- تعني أن الأمر قد يستمر لشهور وربما سنوات!

- ربما.

- وأحوال الشركة ستظل مضطربة طوال هذه الفترة!

- ربما سيخشى بعض عملائنا من ضخ المزيد من أموالهم وأعمالهم في الشركة طوال هذه الفترة. لكن بعد أن ينتهي هذا الصراع ...

- سأرث خرابة. بعد أن ينتهي الصراع ستكون الشركة قد تحوَّلت إلى خرابة.

ثم وجدت نفسي أقولها بحزم كأنني أزيح ثقلًا عن صدري:

- سأتنازل عن رئاسة الشركة لسمير.

- ماذا؟! أستاذ عبد الله، هذا حقك، كيف تتنازل عنه؟! لقد قمنا بالفعل بتحديد الأشخاص الموالين ...

- صدقني يا مازن. بعد أن نتخلص من سمير وأعوانه، فلن تكون الشركة خالصة لنا كما تظن. هل تظن أن هؤلاء الأشخاص الموالين لنا يفعلون هذا حبًّا فينا. كلا، إنهم يفعلون ذلك طمعًا في المزيد من الصلاحيات والمال عندما نظفر بإدارة الشركة. وسنكون قد تخلصنا من سمير، وصنعنا مائة سمير بدلًا منه.

- إن فعلوا ذلك، سنثير الموظفين ضدهم أيضًا ثم نتخلص ...

- وبعد أن نتخلص منهم، يظهر لنا آخرون فنتخلص منهم أيضًا، وهكذا يفنى عمرنا كله في الصراعات، وتنهار الشركة. لا، لن أقبل بهذا. سأقوم بتسوية الأمر مع سمير، وسأراعي مصلحة الجميع. واطمئن يا مازن، سأضمن لك مكاني في الشركة.

- مكانك! هل تقصد أنك ستترك الشركة نهائيًّا؟!

- نعم، أحتاج إلى طي صفحة الماضي، وبدء صفحة جديدة. لا تظن أنني أفعل هذا بسبب ضعفي، لكنني لا أريد مزيدًا من الصراعات والخسائر.

خرجت من مكتبي متجهًا نحو مكتب سمير. كنت قد أعددت مسودة بشروط التنازل، لأعرضها عليه. طرقت باب مكتبه ثم دخلت.

قال ساخرًا:

- هل جئت لتخبرني أن أذهب وأموالي للجحيم كما قلت آخر مرة؟!

قلت له متجاهلًا سماجته:

- بل جئت لأعرض عليك التنازل عن رئاسة مجلس الإدارة.

سادت دقيقة من الصمت. رأيت الدهشة تعلو وجه سمير.

ثم قال لي متشككًا:

- هل هذه خُدعة جديدة يا عبد الله؟

- بل حقيقة يا سمير. وقد جئت بمسودة التنازل؛ حتى تتأكد من جديّتي. وقد وضعت خمسة شروطٍ للتنازل.

أعطيته المسودة، ثم جلست أتأمل تعبيرات وجهه التي تتنوع بين الدهشة والتفكير الشديد في أثناء قراءته المتمهلة لها.

بعد فترة من الصمت قال:

- أما الشرط الأول المتعلق بأخذك مبلغ من المال مقابل التنازل، فلا مانع لديَّ في هذا. وشرطك الثاني المتعلق بعودة جميع الموظفين المفصولين لعملهم، فلا أعلم حقًّا ما أهمية هؤلاء الموظفين بالنسبة لك طالما أنك ستتنازل، لكن حسنًا، لا مانع لديَّ، سأعيدهم لأعمالهم. أما بخصوص الشرط الثالث المتعلق بإنهاء عمل الأستاذ إبراهيم العضو المنتدب، والرابع المتعلق بتعيين مساعدك مازن مديرًا للشئون القانونية بدلًا منك، فلا أوافق عليهما.

- الأستاذ إبراهيم سبب أساسي فيما يحدث الآن بسبب قراراته التعسفية، وأطماعه التي لا تَخفى

على أحد، وأنت شخصيًّا تعلمها. كما أن الموظفين يكرهونه، لأنه يتعمَّد إيذاءهم. ومازن هو أكفأ موظف في إدارة الشئون القانونية، وهو الأولى بهذا المنصب. وأنت تعلم كفاءته جيدًا.

- لماذا تريد أن تتحكم بالأمور رغم أنك ستتنازل؟!

- لا أريد التحكم بالأمور، بل أريد أن أطمئن على وضع الشركة قبل رحيلي. فرغم استعدادي للرحيل عن الشركة؛ فإنها ستظل شركة جدي وأبي، ولا أقبل أن يتدنَّى حالها أو يتأذى موظفوها الذين أفنوا عمرهم فيها.

- ألم أقل لك إنك صرت عاطفيًّا يا عبد الله! وماذا لو رفضت هذين الشرطين؟

- سأستمر في صراعي معك، وسآخذ هذا الصراع لمستويات أعلى من الحدة. اسمع يا سمير، إنني لم أعرض عليك التنازل بسبب ضعفي أو مللي، لكنني لا أريد أن تنهار الشركة التي أفنيت عمري فيها. ولا أريد لأحد أن يتأذى.

- حسنًا، دعني أفكِّر.

- لا مجال للتفكير. أريد لهذا الأمر أن ينتهي الآن. ما رأيك؟

سكت سمير، وأخذ نفسًا عميقًا. ثم قال: حسنًا، وافقت على شروطك الأربعة. لكنك أخبرتني أن لك خمسة شروط، ما الشرط الخامس؟

هو شرط شخصي، لا علاقة له بالعمل.

***

بعد أن أنهيت الاتفاق مع سمير خرجت من المكتب.

كانت مشاعري مضطربة. كانت مزيجًا من الحزن والهدوء النسبي والفراغ: حزن على فِراق الشركة، وفِراق خمسة عشر عامًا من عمري قضيتها فيها، وهدوء لأني أخيرًا تخلَّصت من هذا الصراع المُرهق، والفراغ لأنني لأول مرة أجد نفسي بدون عمل، بدون هدف.

قررت أن أتجوَّل في الشركة قليلًا كأني أودِّعها. تمشَّيت بين طرقاتها، وأنا أتأمل الحوائط والمكاتب والموظفين.

شعرت أن الجدران حزينة لفراقي، فتحسستها بيدي كأني أواسيها وأخفف عنها.

كان الموظفون يختلسون النظر لي متعجِّبين، ربما لأنهم لأول مرة يروننني تائهًا حزينًا بهذا الشكل. لا أعلم كيف سيكون رد فعلهم بعد أن يعرفوا بأمر تصالحي مع سمير. هل سيحزنون لرحيلي؟! هل سيثورون على سمير مُطالبين بعودتي مرةً أخرى، وأن أتولى رئاسة الشركة بدلًا منه؟! هل سيطعنون في سيرتي، حتى يتقربوا من سمير؟!

فكَّرت أن أذهب لمكتبي، حتى أقوم بجمع أغراضي، لكنني لم أتحمَّل الفكرة. لم أتحمَّل فكرة أن أُزيل جزءًا مني من هذا المكان الذي احتضن شبابي. فقررت أن أُرسِل أحد الأشخاص بعد ذلك لجمعها.

وصلت إلى باب الخروج، فوجدت الموظفين المفصولين مفترشين الأرض كعادتهم منذ بدأوا الاعتصام، يعلو الهم والقلق وجوههم خوفًا من المجهول. اطمئنوا يا رفاق، ما هي إلا أيام قليلة وتعودون لوظائفكم مرفوعي الرأس.

ذهبت نحو سيارتي، ركبت بداخلها، وانطلقت نحو المنزل.

عصير الكتب للنشر والتوزيع

فريدة

كنت أجلس مع حسن وماما فاطمة في غرفة المعيشة. كان حسن يعرض علينا أحدث رسوماته التاريخية. كان رسمه يتطور بشكلٍ كبيرٍ حقًّا. وهذا دليل على تحسُّن حالته النفسية. فجأةً سمعنا صوت باب الشقة يُفتَح ثم باب الغرفة. كان هذا عبد الله.

- أتيت مبكرًا عن موعدك يا عبد الله!

- نعم، لقد أنهيت أموري سريعًا اليوم الحمد لله. ماذا تفعلون؟

- نشاهد آخر رسومات حسن.

- أريد أن أراها.

أعطيت الرسومات لعبد الله. كان يتأملها بسعادةٍ وفخرٍ.

ثم قال لحسن:

- تحسَّن رسمك كثيرًا أيها البطل. هذا رائع، حتى تكون مستعدًا للمفاجأة التي أجهِّزها لك.

قال حسن بلهفة:

- أي مفاجأة يا أبي؟

- سأقوم بإرفاق رسوماتك التاريخية مع كتابي عن الإمام الحسن، وأطلب من دار النشر في حال فوزي دمج الرسومات مع الكتاب.

اندفع حسن نحو أبيه محتضنًا إياه بقوة قائلًا: يا لها من مفاجأة رائعة! شكرًا يا أبي.

وقلت له مازحةً:

- هل اختمرت فكرتك أخيرًا في رأسك، سيِّد أينشتاين؟

ضحك قائلًا:

- نعم اختمرت كما ترين. وهناك مفاجأة أخرى لك يا حسن. بإمكانك أن تُقابل كريم في النادي كما تشاء.

قال حسن مندهشًا:

- كريم ابن العم سمير!

- نعم يا صغيري. لقد اتفقت مع عمك سمير على هذا. ورُب ضارة نافعة، رسوبك في العام الماضي سيجعلك هذا العام برفقة كريم في نفس الصف الدراسي، لأنه أصغر منك بعام كما تعرف. وسأعمل جاهدًا كي تكونا في نفس الفصل أيضًا.

- شكرًا جزيلًا يا أبي. أحبك جدًّا.

- وأنا أيضًا أحبك يا بطلي الصغير. ما رأيك أن تذهب الآن لغرفتك، وترسم المزيد من الرسومات، حتى تكون جاهزةً لأرفقها مع كتابي؟

- حسنًا يا أبي. سأبهرك برسوماتي.

أعطى حسن كل واحد منَّا قُبلةً سريعةً، وانطلق نحو غرفته.

بمجرد أن خرج حسن، قلت لعبد الله:

- هل قلت إنك قد اتفقت مع سمير؟!

- نعم اتفقت معه على أن تعود علاقة الطفلين ببعضهما كما كانت في السابق.

نظرت له متشككة قائلةً:

- اتفقتما على هذا فقط؟!

أخذ عبد الله نفسًا عميقًا ثم قال:

- لقد تنازلت لسمير عن رئاسة الشركة.

- ماذا؟!

قلتها أنا وماما فاطمة في نفس اللحظة.

- كما سمعتما، تنازلت عن إدارة الشركة لسمير. ألم يكن صراعي معه مصدر إزعاج لكما؟ ها أنا ذا قد تخلصت من مصدر الإزعاج.

قالت ماما فاطمة:

- لكنها شركة جدك وأبيك.

- لقد كنتِ دائمًا تلومينني بسبب صراعي على رئاستها.

عصير الكتب للنشر والتوزيع

- أعلم يا بُنيَّ. لا ألومك الآن، لكنني حزينة أن ينتهي الأمر بهذا الشكل. القرار في النهاية قرارك.

- لماذا أنتِ صامتة يا فريدة؟

- حزينة، لست حزينة من أجل الشركة، بل من أجلك. بعد أن أفنيت شبابك في الشركة، ينتهي بك الأمر هكذا.

- إنني لم أتنازل من موقع ضعف، بل قوة. وقد تم التنازل بشروطي. كما أنني قد حصلت على مبلغ مالي كبير. وعلى أي حال، لقد كنت أكره الأسلوب التقليدي للعمل في الشركة، وأشعر أنه يقيّدني. الآن أستطيع توظيف هذا المبلغ المالي بالإضافة إلى خبرتي الكبيرة، وعلاقاتي الواسعة في تأسيس مكتب محاماة خاص بي أديره كما أحب.

ثم أضاف مازحًا:

- ثم إنني لم أفنِ شبابي في الشركة كما قلتِ، بل ما زلت شابًا.

ضحكت قائلةً:

- وسيّد الشباب أيضًا. حسنًا، وأنا سأساعدك في عملك الخاص.

- وماذا عن عملك الحالي؟

- لقد تقدَّمت باستقالتي منه اليوم. يبدو أنه يوم الهروب الكبير من العمل.

- لكنكِ كنتِ تحبينه.

- كنت. لكنني الآن أرغب في بداية جديدة. وما أجملها من بداية عندما تكون معك!

- وماذا ستفعلين يا تُرى في مكتب محاماة؟

- هل نسيت أنني حاصلة على شهادة في إدارة الأعمال؟! سأتولى إدارة شئون المكتب، حتى تتفرغ أنت للمحاماة فقط.

قالت ماما فاطمة:

- رُبَّ ضارة نافعة. لعل خروجك من الشركة يكون بمثابة بداية أفضل لكما. أستأذنكما، سأقوم الآن لأنام قليلًا.

- تفضلي، يا أمي.

بعد أن خرجت ماما فاطمة، التفت عبد الله لي قائلًا:

- فريدة، هل أنهيتِ سيرة الإمام الحسن؟

- نعم، لقد اعتكفت عليها الأيام الماضية حتى أنهيتها.

- ما رأيك أن تقصّي عليَّ الجزء الأخير من سيرته، حتى أتمكَّن من إتمام كتابي عنه.

- بمناسبة الكتاب، عندي فكرة رائعة.

قال مازحًا:

- يبدو أنه قد أصابك بعض من ذكائي الحاد.

فقلت مازحةً:

- إن كنت أنت أينشتاين، فأنا ماري كوري.

ضحك بصوت عالٍ:

- حسنًا، سيدة ماري. ما فكرتك؟

- دعها تختمر في رأسي أولًا، ثم سأخبرك بها.

- صرتِ تُشبهينني كثيرًا.

عصير الكتب للنشر والتوزيع

- هل ستستمر في المزاح أم أن ستسمع سيرة الإمام؟
- سأسمعها.

عصير الكتب للنشر والتوزيع

الحسن بن علي

استمرت حياتي بعد الصلح في المدينة المنورة على نحو هادئ. أرعى شئون أهلي وإخوتي وبني هاشم، وأوضِّح للناس أمور دينهم. وقد عاد الهدوء إلى دولة الإسلام، واستُئنِفت حركة الفتوحات مرةً أخرى. كان كل شيء يسير على ما يُرام إلى أن جاءت ليلةٌ رأيت نفسي في المنام مكتوب بين عينيَّ ﴿قُلْ هُوَ اللهُ أَحَدٌ﴾. عجبت لأمر هذه الرؤيا، فقصصتها على سعيد بن المسيّب – وهو أحد فقهاء المدينة – فأخبرني أن تفسيرها أن أجلي قد اقترب.

ما هي إلا أيامٌ قليلةٌ واشتد بي الوجع كما لم يشتد من قبل. كان الوجع رهيبًا حتى إنني كنت ألفظ أجزاءً من كبدي. أيقنت أن هذا بفعل السم. وعندما شعرت بدنو أجلي، جاء أخي الحُسَين فجلس بجانبي. قلت له:

- إني قد سُقيت السم أكثر من مرة، وإني لم أُسقَ مثل هذه، إني لألفظ كبدي.

- من فعل ذلك بك؟

- لِمَ؟ لتقتله؟ ما كنت لأخبرك.

ألحَّ عليَّ الحُسَين ليعرف قاتلي، لكنني لم أخبره. فقد رفضت أن يُراق دمٌ بسببي وأنا حيٌّ، أفأرضاه بعد أن أموت!

ثم أخبرت الحُسَين بوصيَّتي:

- ادفنّي عند جدي، إلا أن تخاف أن يُراق دمٌ بسببي، فادفني في مقابر المسلمين. إياك أن تسفك الدماء فيَّ؛ فإن الناس سراعٌ إلى الفتنة.

كان هذا آخر عهدي بالدنيا. كنت حتى آخر لحظة في حياتي أصون دماء المسلمين.

ربما لم أكن قائدًا عسكريًّا فذًّا أو صاحب فتوحاتٍ عظيمة. ربما كانت إقامتي قصيرة ومعيشتي بسيطة. إلا أنني أُشهِد الله أنني قد بذلت كل ما في وسعي لإنهاء الفتنة

وحفظ دماء المسلمين، وأنني لم أُرق قطرة دم في سبيل مصلحتي الخاصة. وبذلت كل جهدي لأكون ولدًا نافعًا وأبًا صالحًا.

وإنني أشهد أن لا إله إلا الله، وأن محمدًا رسول الله.

عصير الكتب للنشر والتوزيع

عبد الله
(١)

دخلت البيت، وألقيت بنفسي على أقرب أريكة. أشعر بالإنهاك الشديد. كنت قد أعددت أوراق تأسيس مكتبي الجديد، وقمت بإرساله إلى النقابة العامة للمحامين، للحصول على التصاريح والموافقات اللازمة.

ما هي إلا دقائق، ودخلت فريدة من باب البيت، وألقت بنفسها على الأريكة بجانبي. وقالت:

- لم أكن أن أعلم أن تجهيزات المكتب الجديد مرهقة هكذا.

قلت له مازحًا:

- أنتِ من طلبتِ أن تساعديني في المكتب الجديد.

ردت مازحةً:

- كنت غبية. المهم، هل قدَّمت الأوراق في النقابة؟
- نعم، الحمد لله. لم يتبقَّ الكثير. أيام قليلة إن شاء الله ونبدأ العمل.
- وأنا أيضًا أنهيت تجهيزات المكتب. صار رائعًا يليق باسمك. صحيح، ما أخبار روايتك عن سيرة الإمام الحسن، هل قمت بإرساله للجنة المسابقة؟
- سأرسلها مساء اليوم. لقد كانت فكرتك رائعة بشأن تحويل الكتاب إلى رواية، ودمجها بقصة حياتنا، وإظهار تأثير سيرة الإمام علينا.
- وهل اخترت اسمها أم ما زلت مترددًا بعد؟
- هناك اسم أفكر فيه.
- ما هو؟
- (رحلتي مع الإمام الحسن بن علي). ما رأيك؟

سكتت فريدة، ثم قالت:

- اسمٌ جميلٌ، لكن أشعر أنه طويل بعض الشيء. ما رأيك في اسم (رحلة الحَسَن)؟

عصير الكتب للنشر والتوزيع

- رائع. اسم جميل ومُختصَر. سأكتبه على الغلاف ثم أرسله لهم.

- بالتوفيق يا حبيبي. ولا تنسَ أن تُرفِق معه رسومات حسن. إن شاء الله ستحصل على المركز الأول، وتُنشَر روايتك في معرض الكتاب المقبل.

- صدقيني يا فريدة لا أهتم بالفوز بقدر ما أهتم بنشر سيرة الإمام الحسن، هذا الرجل العظيم الذي لم تأخذ سيرته حقها من التقدير والتدوين، ولا أعلم لماذا.

- الناس أكثر ميلًا لقصص الأبطال المغاوير الدُهاة عن قصص الهادئين المُسالمين. صدقني، لو أن الحسن استخدم الحرب والخدعة لنيل الخلافة، ربما كانت سيرته ستحظى بانتشار أكبر.

- معكِ حق.

سكتنا لدقائق. أخرجت ظرفًا كبيرًا، وأعطيته لفريدة دون أن أتكلم. قالت لي مازحةً:

- هل هذه ورقة طلاقي؟

ضحكت دون أن أتكلم.

أخرجت فريدة الأوراق من الظرف. تأملتها بصمت ثم صاحت قائلةً:

- عُمرة! رحلة عُمرة! يا لها من مفاجأة!

وألقت بنفسها عليَّ في عِناقٍ شديد. قلت لها:

- فكَّرت أن نذهب في عُمرة أنا وأنتِ وحسن وأمي، حتى نشكر الله على نِعمه العظيمة التي أنعم علينا بها طوال الفترة الماضية. وأيضًا قبل أن ننشغل في عملنا الجديد ودراسة حسن.
- فكرة رائعة يا حبيبي. كأننا نبدأ حياتنا من جديد. وما أجملها من بداية!

عصير الكتب للنشر والتوزيع

(٢)

خرجت من المسجد النبوي الشريف بعد أن قمت بأداء صلاتي الفجر والضحى. ثم توجَّهت نحو مقبرة البقيع. وقفت أمامها أتأملها. هذه البقعة الطاهرة التي تضم الكثير من صحابة الرسول ﷺ وزوجاته وآل بيته. شعرت براحةٍ كبيرةٍ على عكس ما يحدث لي عادة من انقباض صدري عندما أزور قبور عائلتي في مصر لقراءة الفاتحة لهم.

رفعت يدي ثم قلت الدعاء المأثور عند زيارة القبور:

«السلام عليكم دار قوم مؤمنين وأتاكم ما توعدون، غدًا مؤجلون، وإنا إن شاء الله بكم لاحقون، اللهم اغفر لأهل بقيع الغرقد».

ثم وجَّهت وجهي نحو قبر بعينه. كنت قد سألت بعض أهل المدينة عنه بالأمس فدلوني عليه، وأشاروا إليه. وقفت أتأمله كأني أستحضر صورة صاحبه في ذهني. بقيت صامتًا، حتى بداخلي. لا أجد ما أقوله من رهبة الموقف. ها أنا ذا أقف أمام قبر الرجل الذي جعله الله سببًا في تغيير حياتي للأفضل، الرجل الذي عشت مع سيرته أيامًا وشهورًا.

أخذت نفسًا عميقًا ثم قلت:

السلام عليك يا إمام ورحمة الله وبركاته.

السلام عليك يا سبط رسول الله ﷺ

السلام عليك يا خامس الخلفاء الراشدين.

السلام عليك يا خير خَلفٍ لخير سلفٍ.

جزاك الله عنَّا وعن الإسلام والمسلمين خيرًا.

جزاك الله عني وعن أهلي خيرًا.

ستظل دائمًا في قلبي وعقلي ووجداني.

ستظل سيرة جدك وسيرتك نبراسًا لي في حياتي.

عسى الله أن يجمعني بك وبجدك ﷺ في الآخرة.

السلام عليك أيها الكريم البهي.

السلام عليك يا حَسَن بن علي.

..تمت بحمد الله..

عصير الكتب للنشر والتوزيع

المراجع

* صحيح البخاري.
* سير أعلام النبلاء للذهبي.
* الاستيعاب في معرفة الأصحاب.
* أسد الغابة في معرفة الصحابة.
* البداية والنهاية لابن كثير.
* الطبقات الكبرى لابن سعد.
* الإصابة في تمييز الصحابة.
* فضائل الصحابة للإمام أحمد بن حنبل.
* المستدرك على الصحيحين للحاكم.
* الحسن بن علي شخصيته وعصره للصلابي.

عصير الكتب للنشر والتوزيع